الى القارئ

الانسان هو الذي يصنع تاريخه

ما أسرع التاريخ أحيانا عندما تحركه عزيمة الرجال الرجال وتوجهه عبقرية الأفذاذ فى الاتجاه الذى ترنو اليه الشعوب وتتجسم فيه المثل العليا التى يؤمن بها الانسان ويكافح من أجل نصرتها فى كل مكان ٠

فمن كان يظن أن « توازن القوى » بين العرب واسرائيل وبينهم وبين البلدان المتقدمة سيتغير على النحو ، والعمق والمدى ، الذى تغير بها منذ حرب السادس من اكتوبر الى اليوم ، أى فى فترة لم تتجاوز اربعة أشهر ؟!

* * *

موقفان « بلورتهما » الأحداث فظلا جامدين طيلة ربع قرن ، يعتمد كلاهما على « سنن التاريخ » و « طبيعة الأشياء » و « منطق » القوة ، سريعا ما انكشف زيفهما وتعرى باطلهما :

موقف هذا « الكيان » العنصرى الصهيونى العدوانى الذى صور له غروره أنه فى الامكان إقامة دولة ثابتة الأركان فى جسم الأمة العربية بالعودة الى مملكة سليمان بن داوود وبالاعتماد على العرق والدين وقوة السلاح !

وموقف هذه الأصوات المخذولة التى طالما جرحت آذان المؤمنين وحزت فى نفوس الأباة ، لأنها رغم تشنجها الكلامى وهستيريتها الخطابية أو انتحالها الموضوعية والعلمانية ، لم تزل منذ 1948 ــ خاصة ــ تعتم الواقع على الشعوب العربية عامة والشعب الفلسطينى خاصة ، وتغوى الجماهير وتميع الالتزام الحق فتحمل بذلك على دعم الاحتلال الروحى للشعوب العربية والقضاء على معنوياتها مما يقر احتلال الارض ويؤكد تفوق العدو ماديا وحضاريا ٠

وكانت حرب السادس من اكتوبر فغسلت عار الهزائم وحطمت اساطير العدو وخرافات الانهزاميين وتبخرت تكهنات الراسخين فى فلسفة التاريخ !

بل إن هذه الحرب وتصاعد الثورة الفلسطينية والنضال على جبهة البترول حررت النفس العربية فمهدت بذلك الى تحرير الارض واسترجاع الاوطان السليبة ، وبصرت الأمة العربية بقدراتها وامكانياتها وقابليتها للأخذ بأسباب العلم والتكنولوجيا بسرعة عجيبة ، لأن الزمان - فى مثل هذه القضايا لا يسير سيرا موضوعيا كأنه خاضع لقضاء وقدر ، بل إن الروح المعنوية وارادة الحياة والثقة فى النفس والاستعداد الفعلي للتضحية هى التى تخلق التصميم الصخرى وتعين على العمل الايجابى وتيسر اختصار المراحل بحيث تنفذ المخططات التى كان يحسب لها « العارفون » بالاجيال ، على مدى أشهر وأعوام •

وفى هذا المعنى يقول « ادوارد • ر• ف• شيهان E. R. F Sheehan» فى إحدى افتتاحيات جريدة « نيورك تاميس New York Times » الامريكية : « قد تؤكد الأيام أن الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة يمكن عدها من بين الاحداث الخمسة أو الستة التى طبعت تاريخ العرب كله • ولا أقصد طبعا أنهم انتصروا عسكريا إذ هم ما زالوا دون هذه النتيجة ••• بل الذى اقصد هو أنهم قطعوا مرحلة حاسمة قد تسجل نهاية انحطاطهم الذى دام خمسة قرون ••• » وأضاف : « إن العرب نجوا من الهوة التى تفصل بين التخلف وروح العصر »•

* * *

ثم من كان يظن أن البلدان العربية ، وبلدان العالم الثالث بوجه عام ، المنتجة للبترول والفوسفاط والنحاس والاورانيوم والبوكسيت ••• وغيرها من المواد الاولية الخام ، ستغير علاقاتها السياسية والاقتصادية والنفسانية مع البلاد الغنية الى هذا الحد وبهذه السرعة ؟

ألم يكتف بعض الخبراء وذوى النفوس « الخيرة » و « الحساسة » فى الدول المصنعة بذرف دموع التماسيح ، رأفة بنا وتخفيفا مما أراده لنا « التاريخ » من تخلف ؟ ألم ينصحونا بالتشبه بهم والازورار عن ذواتنا الاجتماعية ، والتحرر من مركباتنا القومية ومشاعرنا الوطنية ، بدعوى أن المستقبل للأممية والاندماج ، فمكثنا نهرول وراء قافلة الأمم المتقدمة ، نتوسل اليها بالمبادىء الاخلاقية والانسانية السامية التى تدين بها وتنتسب اليها ونخاطبها بلغة العقل التى أشاعها فلاسفتها ، ونحتج لديها بمنطق العلم والأرقام التى تستسيغها فنقيم لها الدليل تلو الدليل على أن السلم لن تستتب ما دام الأثرياء يزدادون ثروة على ثروتهم والفقراء يستفحل فقرهم ويتفاقم يأسهم ، ونسائلهم كيف تستقيم الأمور اذا ما واصل 15 % من سكان المعمورة استغلال 65 % من موارد الارض كلها •

وكان العالمون بنواميس الأشياء والمستقرئون لسير التاريخ وغيرهم من العرافين يتسابقون لاقناعنا بأن اللحاق بالعالم المتمدن إن لم يكن ميؤوسا منه ، ـ اذ لا بد من خيط يشدنا الى الأمل ليكون « للحوار » معنى ! ـ فهو رهان لا يمكن ربحه إلا بعد أجيال وأجيال ٠

وهكذا ينهزم الكثير منا معنويا قبل الانهزام السياسي والانكسار المادي ويستفحل العقم الثقافي ويضيق العيش لأن الأمل أصيب في الصميم ٠

وكانت حرب السادس من اكتوبر ! وبدأت معركة البترول وأومض الوعي !

لقد أدركت البلدان العربية المنتجة للبترول وأخذت تدرك معها البلدان « الفقيرة » الغنية بموادها الخام ، أية قوة هذه التي تملك إكسير الحياة وسر النمو الاقتصادي والرفاه الاجتماعي في الدول المتقدمة ٠ فاذا نحن نتغاضينا عن النزيف الذي منينا به في ثرواتنا ما بقي الاستعمار جاثما على أوطاننا ، بله القهر والنيل من الكرامة والغبن في الذات البشرية ، وأردنا حصر « سرقة » خيراتنا من البترول في سنة 1973 فقط وجدنا ان عائدات الذهب الأسود زادت ابتداء من 1974 بما قدره خمسون مليارا من الدولارات!، وليست « التضحيات » المالية الجديدة هي وحدها التي ارتجت لها أركان أوروبا وأمريكا واليابان ، بل إن هذه البلدان أدركت بعد حرب السادس من اكتوبر واتحاد كلمة بلدان الشرق الاوسط وافريقيا انها ٠٠٠ غير مستقلة لأنها لا تملك الطاقة ولا المواد الخام التي تقوم على تحويلها واستغلالها معظم صناعاتها ، مما حمل الملاحظين الغربيين على التأكيد بأن مجتمعات الاستهلاك اكتشفت تداعي نظامها الاقتصادي مثلما اكتشفت سنة 1968 تهافت هيكلها الأخلاقي٠

ولئن استخلص عدد كبير من رجال السياسة والاقتصاد والفكر في الغرب العبرة من هذه الظاهرة ورضوا بما ليس منه بد ، فأخذوا يبتكرون علاقات تعاون جديدة ويتهيأون نفسانيا الى قبول نتائج توزيع جديد للتضحيات والمجهودات والفوائد على الصعيد العالمي ، فان قسما كبيرا من الرأي العام لا تزال تعبث به الصهيونية وتسممه بعض النفوس المريضة التي لم تهضم استقلال الشعوب ولا استأصلت من مناخها الثقافي والحضاري مركبات الغرور وعقارب العنصرية٠وقد أشرنا الى هذه الظاهرة وشهرنا بموقف نفر من الكتاب والصحافيين الذين ردوا الفعل إزاء وقفة العرب وتحديهم ـ بدورهم ـ « التحدي التاريخي » فانبروا يشوهون الاسلام ويظهرونه في مظهر الطقوس والتعاويذ والتمائم للاساءة اليه ، وإظهار العرب في مظهر أبطال ألف ليلة

وليلة بل عمدوا الى السخرية اللاذعة وكشفوا عن ترسبات لا شعورهم ، من دون أن يفقهوا أنهم لا يجنون من ترهاتهم سوى الأوهام وأن دورهم لا يتعدى دور الصديق الجاهل .

* * *

ومن دون أن نزج بأنفسنا فى منطق القوة أو ننساق مع الخيال والخيلاء وجب أن نستمد العبرة من هذا الحدث التاريخى العظيم الذى جدد طبيعة العلاقات الاقتصادية والسياسية بين البلدان العربية خاصة والبلدان السائرة فى طريق النمو عامة ، وبين البلدان المتقدمة صناعيا ، ونكون فى مستوى المرحلة التاريخية الجديدة التى سماها توفيق الحكيم مرحلة التعمير الحضارى ونعتها محمود أمين العالم بأنها معركة التحضير العربية .

اليوم وقد أيقظتنا صيحات النصر واكتشفنا امكانياتنا وأصبح العالم يحسب لنا حسابنا ، يجب ألا نغتر أو نجتر كما اغتررنا واجتررنا فى السابق ، بل علينا أن نحلل أسباب تخلفنا وقعودنا ونشرع فى تخطيط نهضتنا على أساس تأكيد الذات وارساء قيم جديدة فى مجتمعاتنا وبلوغ مستوى النضج والتألق فى الاخذ بالعلم والتكنولوجيا ، على أساس الايمان بأن احقاق الحق وأخذ البشر نصيبهم من نور الشمس لا يكونان بحد السلاح فحسب بل يعتمدان القوة الاقتصادية المتكاملة والنظام السياسى الشعبى المحكم والقوة المعنوية الصلدة التى نعبر عنها بالعقيدة والتى من دونها لا يكون للحياة معنى ولا هدف .

* * *

إن التاريخ تحرك بسرعة طيلة الأشهر الأربعة الماضية ، حركته عزيمة الرجال ، فعلى هؤلاء الرجال أن يكونوا فى مستوى التاريخ ، أى أن يبنوا بمعية شعوبهم وبالتعاون مع كافة القوى الحية فى العالم المصير الأفضل الذى سيكون ما يريدونه أن يكون .

إذ التاريخ ليس تعبيرا عصريا جديدا عن القضاء والقدر ونواميس الأشياء ، وإنما هو جماع جهد الرجال الذين يعيشون من أجل هدف أسمى ويضحون فى سبيل مثل أعلى ، وهو ثمرة جهادهم ودليل حريتهم وعنوان مجدهم وسر عظمتهم .

محمد مزالي

« مواقف »
أو الرهان على المستقبل (*)

بقلم : البشير بن سلامة

كنت أنوى أن أرتجل كلمتى بمناسبة هذا الحفل الذى تقيمه دار الثقافة ابن خلدون لتكريم الاستاذ محمد مزالى بمناسبة صدور كتابه « مواقف » . ثم قلت ان عشرة عشرين سنة فى ظل أخوة صادقة وعمل متواصل واخلاص للمبادىء طافح ، وحماس فياض من شأنها أن تلهب العواطف فتكون السيطرة على الفكر محنة ، ويكون الموقف امتحانا ، والحال أن « مواقف » رحمة .

التجأت الى قيد الكتابة واغلال العقل الذهبية ، ورضيت أن استعيض فيض الاحساس وتلقائية الخاطرة العابرة بالنظرة المتعامقة والتحليل المتأنى وقلت لن أتحدث عن الكتاب الذى ان دل على الاستاذ محمد مزالى فهو يدل على جانب من جوانب تفكيره وانما الذى أعتزم الخوض فيه هو صاحب الكتاب ومواقفه من نفسه ، ومجتمعه ، وقضاياه ، ووطنه بصفة عامة ؛ وان كنت تطرقت الى ذلك فى لمسات رفيقة بمقدمة كتابه « من وحى الفكر » .

يلذ للاستاذ محمد مزالى أن يتواضع الى حد التصريح بأنه ليس شاعرا ، ولا كاتب قصة ولا مسرحية أى أنه بعيد كل البعد عن الادب الانشائى ، هذا الادب الذى يعتمد الحدس والخيال والعاطفة ، بينما أغلب كتاباته لا تخلو من هذا كله مع وضوح التعبير ورشاقة الاسلوب ولكن الذى به يختلف كاتبنا عما ترجم عنه الادباء ، — وان هو شاركهم فى أرضية واحدة من التفكير والاحساس ، هو اصداعه من دون تعمية ولا غموض بهذا الذى دفع ويدفع شعراء تونس وكتابها الى الحلق ، نجحوا أم لم ينجحوا ، أى كشفه فى شجاعة

(*) نص الكلمة التى ألقيت فى حفل التكريم الذى تم بدار الثقافة ابن خلدون يوم الجمعة 14 ديسمبر 1973 بمناسبة صدور كتاب « مواقف » للاستاذ محمد مزالى .

تامة ونفاذ بصيرة فريدة عن هذه الارضية بمآسيها وأفراحها ، بقتامة الامل فيها وابتساماته ، ولم يغب عنه وجهها التاريخي وملامحها الفلسفية ، ومطاويها النفسانية ودروبها الحياتية ، وتعاريقها الاجتماعية . هو يرد من نفس العين الصادقة التى توحى للشاعر بتهويماته ، ويعب من الينبوع ذاته الذى يرتوى منه كاتب القصة والمسرحية ولكنه يشتد فى صدوره شدة الفكر وبأس العقل ، وهو الذى تدوى فى جنبات نفسه أصداء سنابك الخيل التى جابت هذه الارض طولا وعرضا ، بالفتح المبين تارة ، وبالغزو الضارى تارة أخرى ، ويتصادى فى أسماعه أزيز الرصاص ودوى آلات العصر الغادرة طورا والذادة عن الكيان طورا آخر وتتناغم فى أغوار أحاسيسه رفات طبيعة أرض وطنه الضحوك ببساتينه وأزهاره وثماره يخصبها النحل فى غدوه ورواحه .

اسمحوا لى ، حضرات السادة والسيدات ، أن أتوقف عند النحل ، واعتبروا هذا ، ان شئتم ، من قبيل الاستطراد أو تهافت الحديث ، أو الانتقال من الديك الى الحمار ، كما يقال ، وهذا يتضارب بالضبط مع نسق التفكير عند الاستاذ مزالى ، ولكن بضدها تتميز الاشياء .

وحديث النحل غريب وخاصة فى تونس وقد درسه العلماء الاجانب بمثل الحرص الذى حللوا به سكان هذه الارض . ورأوا فيه مساوىء عديدة لا تتماشى مع الانتاج السليم ولكنهم سلموا بوجود بعض المحاسن . فنحلنا من جنس عريق فى القدم وله ملكة شديدة لمقاومة الآفات مع حيوية مفرطة وشدة بأس ، غير أنه مولع أشد الولوع باللدغ ميال الى نهب عسل الغير وبالطبع فالعمل عنده بطىء جدا وساعات الجد والاعتناء ، فى اليوم قليلة ، علاوة على تشتت جهوده فى بناء عدة خشارم وفساد انتاج الشمع عنده .

ونسى هؤلاء أن هذا النحل ترك وشأنه تعمل فيه الطبيعة عملها ، والطبيعة عندما تترك وشأنها لا تعطى الثمرة المرجوة . ولولا أصالة هذا الجنس لانقرض وذهب ريحه كما قالوا .

بنفس هذا المنطق حلل الاجانب سلوك سكان هذه الارض ورأوا فيهم عيوبا كثيرة عاقتهم عن بناء الحضارات فى زعمهم وهذه العيوب هى نفسها التى ضبطها علماء النحل وروجها العلماء الاستعماريون عن أهل البلاد دهرا طويلا. ولم يعيروا أى انتباه لما قاساه هؤلاء من الويلات، الاحقاب تلو الاحقاب، ولم يلينوا ولم يستكينوا وهو الذى عطل سيرهم ولم يوفر لهم من حظوظ الخلق والبناء

الا الشيء القليل وفى الفترات المتباعدة • وبقيت هذه الظروف التى صنعتها الاحداث وصهرتها الويلات مخيمة ان حقا أو باطلا على مجالات الخلق مكبلة لانطلاق الخلاقين مشتتة للجهود مقوضة للتقاليد الحسنة • كل هذا يصور بالضبط الارضية التى انطلق منها كل الشعراء والكتاب فى تونس ليكتبوا ما كتبوا ، وهى التى تفسر شعر الشابى وأدب الدوعاجى والمسعدى وغيرهم• وهى التى انبرى الاستاذ محمد مزالى لتحليلها التحليل الاوفى ونبذ الاباطيل المنسوجة حولها وقد مضى الى أبعد من ذلك فى محاولته لتغييرها وتحويل السنن التى درج عليها الانتاج الفكرى والادبى فى تونس •

هذا الحرص هو الذى دفع محمد مزالى الى تأسيس مجلة « الفكر » والاصرار منذ تسع عشرة سنة على اصدارها بنفس الحماس ونفس المواظبة وهو قطع لتلك السنة المعروفة فى تونس التى تجعل كل مجلة أو جريدة تتهافت تهافتا بعد ردح قليل من الزمن مما دعا بعضهم فى الثلاثينات الى اضفاء عنوان طريف على جريدته يتماشى مع السنة المعروفة وهو ردح من الزمن •

وهذا الفهم العميق لهذه الارضية هو الذى جعل صاحب «الفكر» يفتح مجلته الى كل الاتجاهات ويشجع الناشئين ويأخذ بيدهم فى رحابة صدر وتقدير كبيرين وهو الذى أتاح له الفرصة لتجتمع على صفحات « الفكر » كل الاقلام حتى أصبحت المجلة هى مجلة تونس • وغايته القصوى فى كل هذا هو أن يقلب تلك السنة المشؤومة قلبا ، ويحدث حركية فى مجال الخلق الادبى والفكرى لن تتراجع الى الوراء أبدا ولن تنقطع دورتها على مر الدهور والمطمح الوحيد هو أن لا تظل تونس ناظرة على مسرح الادب والفكر الى الاشباح تتراءى ثم تختفى ، وعباقرة يلمع بريقها ثم يطويها عنت الدهر بل الامل الكبير الذى يحدوه هو أن تحتضن تونس أبناءها الافذاذ ، وترعاهم وتترك لهم سبيل الخلق والابتكار فى حرية واجلال •

وان نفاذ « صاحب مواقف » الى سيرورة هذه الارضية وايمانه بازالة خللها والابقاء على مقوماتها الاساسية هو اصداعه بان الادب صدق أولا وملحمة ثانيا صدق فى ولائه للذات الأمينة لا يتفسخ ولا ينحرف ولا يذوب ولا يتلاشى فى غيره ولا يقلد فينحدر ، وملحمة فى ايمانه بقدرة الانسان على تغيير منزلته الدنيا ، والارتفاع الى مشارف الانسانية الحق •

كل هذا جعل عمل محمد مزالى فى جميع المجالات ، السياسية منها ،

والادبية ، والفكرية ، والرياضية ، والسلوكية خاصة ، يتجاوب بعضها مع بعض ولا يسب بعضها البعض كما يلذ له أن يقول ٠

وان هذا الحفل الذى أتاحته دار الثقافة ابن خلدون ليندرج فى صلب هذا التحول الكبير الذى تعيشه تونس المستقلة وهو فرصة نادرة للتأكيد على أنه ليس من الهين النفاذ الى تحليل هذه الارضية التى أشرنا اليها وتخليص المجتمع التونسى من آفاتها من جهة والابقاء على مقوماتها الاساسية التى بدونها لن تكون تونس محتفظة بخصوصيتها متشبثة بتونستها بما فى هذه الكلمة من شمول لمقوماتها الاساسية من عروبة واسلام وانصهار فى العالم المتقدم ٠

هذا هو الرهان الذى وضعه الاستاذ محمد مزالى وهو على وشك أن يربحه ونعم هذا الوشك ، لانه يفرض عليه أن يسترسل فى جهوده وأن يواصل أعماله لان أصدقاءه ومريديه ينتظرون منه الكثير فى هذا الباب ٠

ثم أليس من قبيل غلق أبواب المستقبل أن أستمر فى هذا التقصى الذى آمل أن أكون فيه مقصرا والحال أننا نتمنى جميعا أن تتعدد مثل هذه المناسبات وأن يجد كل منا فى كل مرة الوطاب مليئا ٠ فالى القريب العاجل وشكرا ٠

مواقف (*)

شعر : محمد الشعبوني

مواقف تسمو لدى كل ناد ... و (فكر) يفيض بأسمى المبادى
وعزم كعزم أولى العزم ينمو ... مع الدهر فى روعة واتقاد
ونظرة صدق الى واقع ... شعار (محمدنا) فى الجهاد ،
وتونس عنده ، تونس أولى ... وكم ذاد عنها رفيع الذياد
ضمير من الطهر اعماقه ... وقلب يجيش بحب البلاد ،
له قلم ليس يخبو سناه ... يسير فى سبيل الرشاد
(مواقفه) الخالدات دليل ... على حسن.رأى وصدق اعتقاد
أقام الى (الفكر) نهجا سويا ... وأرسى بصدقه أقوى عماد
مواقف طهر بها نتغنى ... ويعتز جيل وينهل صادٍ
مواقف يذكرها جيلنا ... ويشدو بآياتها كل شاد
تعد ــ المواقف ــ فى ذاتها ... أجل تراث ، وخير سماد
تجسم آداب خضرائنا ... ويزهو برونقها حرف ضاد
وتدعو الشباب لحب حماه ... بدون انغلاق ودون عناد
فانى رأيت (المواقف) تدعو ... لنحيا جميعا بروح اتحاد
رأيت المواقف تهدى الجميع ... وهمة صاحبها فى تمادى
وماذا أقول وقولى حب ... وعاطفة تلتظى فى ازدياد ،
وإن المحبة عهد وعطف ... وليس لها بيننا من نفاد
فخذها تحية حب مبين ... من القلب تزكو بصدق الوداد
فانى عرفتك منذ زمان ... واسكنتك العين بل والسواد
وعفوا اذا أنا أوجزت قولا ... فرب قليل كثير السداد
وعفوا اذا قصر الجهد منى ... فانك أدرى بما فى الفؤاد
وأغلى أمانى الحياة لقاء ... نجدد يومه فى كل ناد

م. ش.

(*) تحية توجه بها الشاعر الى الاستاذ محمد مزالى بمناسبة صدور كتابه « مواقف » .

فصة حب

قصة ، بقلم : فاطمة سليم

مهداة الى رجل عظيم حضرت حفل تكريمه فلامنى كثيرا لانني لم اكتب من زمان ٠
أثر فى لومه الى حد ان بكيت بعد ان اختفى ٠

كان الفجر جميلا نديا ، والهواء سخيا يمنح الصحة والعافية بدون مقابل وبسخاء كبير ٠٠ كان الفضاء شاسعا بلا ضباب والمراعى خصبة والارض حنونا معطاء ٠ كانت الجبال هادئة شامخة عامرة بالضباع والوحوش ، وبالاشجار التى لا ثمر فيها وبصخور كبيرة ومغارات واشياء اخرى نجهلها ٠٠ كانت السماء فى اجازة تميل الى الكسل والهدوء منبسطة تحلم بالغد الملون ٠٠ وكان سكان القرية شبه نائمين فالصباح ما زال مبكرا وموعد القطار ما زال بعيدا ٠

غير ان جحجوحة استيقظت هذا اليوم مبكرة جدا بعد ان باتت تحلم احلاما جميلة على غيز عادتها ٠٠ طار من جفنيها النوم والكسل وتذكرت مباريات العدو الريفى ٠٠ اخذت حقيبتها وقالت فى نفسها : اليوم ساستقل القطار من القرية المجاورة ، وسأقطع المسافة بين القريتين عدوا على الرجلين سأغتنم هذه الفرصة وأتخيل نفسى الراعية الغجرية التائهة فى الفيافى سأحدو على طول الطريق حداء العربية العائدة بعد طول النوى ، « انا الفارسة المغوارة ٠٠ سلاحى فى قلبى وفى لسانى ٠٠ انا العملاقة المتعبة قارئة الكف جاهلة المصير ٠٠ يا حربى مع قلبى ٠٠ يا حربى مع لسانى ٠٠ يا جرحى المر فى كلنيهما » ٠

* * *

جوادى الابيض ذو مزاج متقلب ، لن ألومه لأنه جـوادى ٠٠ منـذ دقيقـة تعرفت عليه ومنذ دقيقة ركبته ، وها هو يقطع بى السهول والوهاد والوديان والحقول ٠٠ طمأننى الجواد ٠ قال : انه يعرف الطريق جيدا وسيعود من حيث أتى بعد ان يصل بى الى غايتى ٠ لكن يا خيبتى ! الجواد تذكر انه حيوان أعجم وانه مسخر ٠٠ تذكر انهم يضربونه بالسياط ويربطون المحراث على ظهره ، وينسون انه عطشان ، وينسون انه يريد ان يرى حبيبتـه ولو مـرة فى كل موسم تذكر الجواد كل ذلك فوقف ٠ لكن الاغنية الجميلة التى كنت اغنيها لم تتوقف فى حلقى فواصلت الحداء ٠٠ حمحم الجواد فلم افهم ٠٠ صهل الجـواد فلم اسكت ٠٠ دق الارض بحافريه فلم اهتم ٠ قال فى نفسه : « ما اغباهـا وما اكثر صخبها ٠٠ لا بد من صدمها بالواقع المر » ٠٠ اهتـز ونفضنى على الارض ٠٠ على العشب الطرى وصهل من جديد ضاحكا وعاد من حيث أتى ٠

* * *

وبالرغم من ذلك لم تسكت الاغنيـة على فمـى ٠٠ لم ينجـرح جبينى على صخور الطريق ٠٠ لم يتمزق ثوبى ٠ فقط خـدشتنى بعض الاشـواك فى رجلى ، وتناثـرت الاشيـاء من حقيبتى ومـع ذلك واصلت الحداء ٠٠ واصلت الكلام مع نفسى ٠٠ واصلت الصراخ فى العراء ٠٠ واصلت التغنى بجمـال الطبيعة ٠٠ وواصلت استنشاق الهواء ٠

وكنت ملقاة على العشب كالجندية المجروحة تريد ان تلفظ انفاسها لكن ليس قبل ان يحضر من تبلغه وصيتها ٠

* * *

وفجأة انشقت الارض عنك ٠٠ انبثقت من الغاب أو تمخض عنك الجبل أو زرعك الوادى ؟ لست ادرى ٠٠ المهم اننى فتحت عينى فرأيتك واقفا أمـامى تمد يديك وتبسم يا الاهى ! هل انت تبسم أم الخير يبسم والنـور يشـرق والبهجة ترقص والحنين يستيقظ والزهر يتفتح ٠٠ هل انت تبسم أم الالحان العذبة تتجاوب والثمر يسقط والماء يجرى والنجم يفرك عينيه وأوراق الزهر والياسمين والفل والعنبر تتطاير ٠

ما للجو يعبق بهذا الطيب العجيب ؟ ما للطيور كلها تجمعت فـوق رأسى تزغرد وتصفق بأجنحتها ٠

أيها الغريب قل لى من انت ٠٠ آه لا تقل من أنت ٠٠ أنا عرفتك من علامتك المميزة الثعبان المتلولب والكأس ٠٠ أنت طبيب ٠

ــ أهلا بالمريضة الجميلة اعتمدى على سأعرفك على مصحتى الهادئة النظيفة المرتبة ٠٠! سأعرفك على مرضاى الطيبين الذين أحبهم من كل قلبى وأعالجهم بكل صدق واخلاص ٠٠ اسهر معهم يوميا حتى منتصف الليل لا يكفى انى أعالج ما بداخل بطونهم ورؤوسهم ٠٠ والله العظيم كم منهم من ياتينى أعمى فارجع له البصر ويأتينى أصم فأطلقه سميعا ويأتينى أعرج فأسوى رجليه وأجعله أول عداء فى الطريق ٠

ــ غريب هذا الكلام ٠٠ غريب هذا الطبيب يلبس الازرق المبقع بالزيت والنفط ويداه تمسكان بالمقود مسك الماهرة بالعجين ٠٠ هذا الطبيب شعره طويل كثيف ٠٠ هذا الطبيب يداه خشنتان مجروحتان ٠

* * *

على البحر وتحت الجبل ٠٠ حينا فى الضوء وحينا فى العتمة ٠٠ مع العزف صخبا صارخا أو هدوءا مستنيما ٠٠ رهان مع الطرب مع الحركة ٠٠ مع نسيان الهموم ٠٠ مع التجرد من الجلود المصبوغة ٠٠ مع استنشاق نسيم الحق والعدل ٠٠ مع الاعتراف بعظمة الفن ٠٠ بعظمة الخالق ٠٠ مع كل التوقعات الجميلة التى أملتها الاخبار ٠٠٠ طلعت علينا المغنية الزنجية الرهيبة ماريام ماكيبا ٠٠ كوكبة نارية من الضوء اللماع الاسود ٠٠ احترقت الاكف تصفيقا فصرخت ماريام : « حريتى » ماجت الارض بالحاضرين ٠٠ تزعزع المكان للصوت الرهيب : « ٠٠٠ أمومتى » دمعت العيون للموقف ٠٠ امتزجت الآمال بالآلام مع صراخ الباحثين عن الحرية الجوعانين لخبز الحرية ٠٠ العطشانين لماء الحرية ٠

وتقلقل الحاضرون للبركان وهو ينفجر ، يرمى بشواظه وصخوره النارية : « أنا حرة ــ أنا حرة » ٠٠

من عيون ماريام الفزعة ٠٠ من صدرها الثائر الصاخب ٠٠ من ساقى ماريام ماكيبا الراكضتين على ركح الحفل الهائج قدس الحاضرون الجسم البديع الملفوف فى قماش أبيض ٠٠ ثلاثة أرباع الجسم مغرية بالعرى وليست عريا ٠٠ واللون الاسود زيتون مضىء ، والحنجرة الرهيبة تبكى فلا تسمع معها الا عويل الشجن ينبعث من قلوب المتفرجين حين لم يملكوا اعصابهم وتذكروا ٠٠

الحنجرة الصداحة تضحك ضحكا منغما ٠٠ شعرا لطيفا ٠٠ كلاما ذائبا ٠٠ وماريام ماكيبا تكشر عن اسنان تضيء ظلام العتمة ٠٠ ماريام ماكيبا تغنى فالارض كلها تغنى ٠٠ ماريام ماكيبا تحن فالقلوب كلها حنت ٠٠ ماريام ماكيبا رقصت فرقص الناس اجمعين ٠٠ ماريام ماكيبا امرت بالصمت فصمتت أمواج البحر وتوقف الريح عن الصفير ٠٠

ماريام ماكيبا امرت بالحب فأطعنا الاوامر صاغرين ٠

* * *

جحجوحة لم تزل تعشق المرآة بالرغم من كثرة ما زارت من كنائس وبيع وصلت فى مساجد وبالرغم مما نسجت من اردية الحرير وغزلت من ستائر الصوف !٠ أيتها المرآة يا معذبتى ٠٠ أيتها الصديقة يا مغريتى اليك بشرى الابر السامة التى لم تعد تعرف كيف تخزنا ٠٠ بشرى كيان الصخر الذى تقولب فى ميداننا شامخا هرميا شاخص البصر رفيع الانف مبتسما على الدوام ٠٠ أيتها المرآة ما أغباك ! عفوا كم أنت ذكية ٠

* * *

جحا ٠٠ خبرنى لماذا عندما أحبك يصيبك الجنون وترفع الى السماء عينين مملوءتين بالدمع ٠؟ جحا قل لى لماذا أنت تحترمنى كثيرا تسمعنى عندما أتكلم ألم يعلموك كيف تقاطع الناس اثناء الكلام ؟ ألم يعلموك أن تسيء الظن بالكل بدون استثناء وخاصة بصنف يقال له النساء ؟

جحا خبرنى لماذا أغضبك وتلتمس لى الأعذار وتصفح عنى ٠٠ تمسح عينى من ماء المطر ٠٠ تزيح قبعتى عن رأسى ٠٠ تعلق معطفى على المشجب ٠٠ تفتح لى الاسطوانة التى أحبها وتقبع عند رجلى صامتا حتى أغير الحديث ٠٠

جحا لماذا لم تستأذنى فى الدخول الى قلبى ؟ لماذا تضحك عندما آمرك بالضحك وتصمت عندما آمرك بهجرى ؟٠

جحا من اى بلد أنت ؟ بمياه أى بحر استحممت ؟ أى نوع من صخور الجبال أدمت أصابع رجليك ٠٠ أى ريح عصفت فرمتك من آخر الدنيا الى هذا المكان ٠٠

جحا اغضب ولو مرة واعرف اننى سأخونك وسأحب نفسى أكثر مما أحبك ·· سأحب جدران بيتى والحديقة والسور العالى ونوافذ الحديث وجهاز التلفزة أكثر منك ·

جحا لا أستطيع أن أنسى جوابك لى عند السؤال :

- أكون شيئا من أشيائك العزيزة فقط أحبينى ·
- أكون آلة الهاتف على مكتبك ·
- أكون الكتاب الذى تقرئين ·· أكون القلم الذى به تعزفين ·· أكون الاسطوانة الحزينة التى تستمعين ·· أكون القهوة التى تشربين ·· أكون النار التى عليها تتدفئين ·· أكون القدر الذى تخافين فقط أحبينى ·

اصمت يا جحا ·· اصمت ·· النار جميلة وإناء القهوة أجمل ·· والشمس خارج الغرفة مريضة بالتردد دائى الوبيل ·· اسكت يا جحا فكرى مشغول فى اليوم الذى ولدت فيه واليوم الذى سأموت والسنين التى مضت من عمرى ولم أفعل فيها شيئا مما كنت أريد أن أفعله من قبل ان اولد وحتى بعد ان أموت · أنت رائع يا جحا ·· صورة للحزن الجميل الذى نصاب به ونصاب بالصبر عليه صورة للجمال الذى لا يقلق لانه يجهل قيمة نفسه ·· صورة للثوب الاسود الحريرى الذى سيجمعنى ويفضحنى بالرغم عنى والذى لن اشتريه ولن ألبسه ·

* * *

كان المكان قصيا لا ظل لليابسة ·· كنا فى بحر من الماء ·· كان البحر أخضر والسماء خضراء ·· قررنا أن نولد من جديد ·· أن نتطهر بمياه قدسية ·· وضعنا خطة للاعتراف تتمثل فى ما يلى : أولا أن ننضو عنا كل ما هو مخاط بالابر الواخزة ·· أن نرمى بعيدا ثياب الاستحمام الكذابة ·· أن نجرب الشجاعة فى الظهور عرايا أمام الله · ثانيا : أن نتحمل شيئا من المشقات علينا أن نتلولب فى الماء ألف مرة طفوا ورسوبا من الفضاء الشاهق الى الاعماق العميقة ، وان نحذر فى كلتى الحالتين من الاطمئنان والفزع ·· من طلب النجدة ·· فقط مسموح لنا أن نحدق فى جواهر الاعماق ·· ان ننبش عن الحق فى الاغوار ·· عن الصدق فى التلولب ·· عن الحياة بين فكى الموت وأظلافه ، ثالثا : لا بد من الضحك بصوت مرتفع ضحكا يزعزع الضلوع ·· يرجف القلوب ·· يسيل الدموع وأخيرا يريح الاعصاب ،

رابعا : علينا أن نتسلح بالهدوء الكامل ٠٠ بالمرح الكامل أى أن نفقد الذاكرة ردحا ما وأن نبنى كيان حصتنا بناء اختياريا يرضينا ٠

* * *

السيقار أبيض طويل ذو مبسم من ذهب يشع بدخان الحياة ، السيقار بين أصابع رقيقة وأظافر طبيعية مقلمة يرتعد بردا بالرغم من قلبه المتوهج ، فيك أيها الصغير ما فى قلب الجوزة الهندية من رحيق لذيذ ٠

بالرغم منا نلتجىء أحيانا لمشاركة الآخرين فى أفكارهم الخاطئة لاننا عندما نصر نصبح وحدنا الخاطئين أيتها السحب الصغيرة القريبة من أنفى لماذا أنت رمادية وفيك خطر صغير على عينى ٠ أنصحك انسحرى بيضـاء كالحليب كالقطن المندوف ٠ اعبقى بغير هذه الرائحة ٠٠ كذلك أستطيع أن أفهمك ٠٠ أستنشقك وأبلعك ٠٠ أضيع فيـك ٠٠ تعـوضين لى بعض مـا أضيـع من زفرات ٠٠ أيها السيقار الجميـل احتـرقت ولم تحـرقنى ٠٠ نفختـك ولم تداخلنى ٠٠ أوهمتك ولم توهمنى ٠٠ أيها السيقار يا عدوى بل يا صديقى ٠٠ إليك عنى فأنا أريد تعويضك ٠٠ لا ٠ لا تصدقنى ليس هنـاك فى وحدتى من يعوضك ٠٠ أسخر منك يا سيقار ٠٠ أتغزل فيك كذبا ٠٠ اتخذك مطية لكى يقال عنى المدخنة الحسناء ٠

* * *

واقترب الخريف وهجمت علينا جيـوش الذبـاب وصـاح بنـا الشيـوخ والعجائز : قفوا إنا بكم لاحقون ٠٠ ولم نقف ٠٠ طوينـا الارض ٠٠ قفزنـا الحفر ٠٠ تسلقنا الاشجار ٠٠ توارينـا فى الكهـوف ٠٠ كـان للكـلام فى صدرينا بقية ٠٠ كان للعيون فينا حتام الجوع ٠٠ كانت أيدينا مشتبكة بعنف يصعب معه الانفصال بدون اسالة الدم ٠

ومع ذلك نصبوا فخا واصطادونى ٠٠ هيأوا لوثاقى حبلا عنيفا وقيدونى ٠٠ كانوا خائفين على ، بحثوا لى عن عروس ، ذبحوا خرفانا سمينة فى الفـرح ، اطلقوا الزغاريد البلهاء نائحين على العهد الجميل ٠٠ سمموا الجو بالاباخير ٠٠ والغريب يا جحجوحة اننى كنت غافلا عما يفعلون كنت انفـذ مـا يأمـرون وأنفق بدون حساب ٠

وفى ليلة رديئة الطقس أقاموا فى ساحتى مهرجانا ودقت الدفـوف بالالحـان الراقصة وأمرونى أن أقف لأخذ صور تذكارية فوقفت ٠٠ قالوا هات اصبعك ففعلت ٠٠ ومن يومها فقدت واحدا عزيزا من أصابع يدى ٠

يا جحجوحة قولى من أى نسيج حاكوا لك الفستان الذى تلبسين ؟ أمن أسلاك الشمس وريش الطاووس وأهداب العيون أم من زبد البحر وورق الزهر وخيوط القز ؟٠

يا جحجوحة قولى لماذا كنت يومها تحملين فى عينيك فوهتين بالنار وفى يديك قنبلة من عذاب ؟ لا تتجاهلى فتهانيك الكاذبة أوجعتنى ٠٠ حرقتنى ٠٠ سمرتنى ٠٠ وكم وددت لو تحدث معجزة وتحدث اشياء غريبة مثلا ان امسكك من يدك ونطير٠يا جحجوحة لا تفكرى فى نسيانى على الاقل منأجلالصبر الذى ابتليت به يوم ان صدرونى مجلسا وحكموا على من غير ان يعرفوا ان اتصلب على رؤياك ٠٠ ان اصلب على محياك ٠٠ ان اذوق العذاب ألوانا وأنا ابتعد عن دنياك ٠

وكنت اراك من مجلسى ذاهلة تصفقين ٠٠ تتمايلين طربا مع الضوضاء التى يحدثون ٠٠ وكأن قد أصابك الجنون فأخذت ترمين بالاوراق المالية بلا شعور ٠

ورأيت العازفين يدعون لك بالهناء ٠٠ وسمعتك تهتفين باسمى فى الغمرة وتضيفين له بعض الكلمات لم يكن ليفهمها سواى ٠٠ يا عذابى من الفهم الذى ابتليت به لكى لا أفهم سواك ٠

* * *

أيها القمر يا قرص الضوء فى أديم السماء شكرا انك تضىء الليل وتسمح لى بالهيمان ٠٠ انك تؤنسنى ٠٠ تطرد وحشتى ٠٠ تزيد من حساسيتى ٠٠ تمنعنى من النوم ٠٠ أيها الطريق العالى الطويل أتدرى لماذا عبدوك ؟٠ لكى أتمشى عليك فى الساعات الوسيطة من الليل ٠٠ أيها الطقس ٠ حنانك لا تبرد أكثر من اللازم ٠٠ يكفينى البرد الذى يثلج أطرافى ويتراكم على جفنى ويقيد حركتى ٠٠ أيها البرنس الابيض المنسوج من القطن الدافىء ٠٠ لفعنى جيدا ٠٠ هبنى شكل الحراس الليليين ٠٠ هبنى شكل السحرة الطيبين ٠٠ لا بل أخفنى عن العيون ٠٠ احمنى من الظنون ٠٠ ساعدنى على أن أرى حبيبى من حيث لا يرانى ٠٠ أراه منكبا على المرضى يعيد الحياة الى قلوبهم ٠٠ أراه يعلق مصباحا على قارعة الطريق يهدى النور للضالين ٠٠ أراه يلبس الازرق المبقع ويداه الخشنتان المخدوشتان تتعبان وتهديان الفن والعمل الصالح لكل المسافرين ٠٠

* * *

أيتها الشمس الحامية أنى أسمح لك اليوم بأن تحرقيني ٠٠ زيديني سمرة على سمرتي ٠٠ اصبغيني بلون الخبز الناضج ٠٠ اذهبي سواد شعري ٠٠ اتركي بقعا ملونة على وجنتي وزندي فأنا قد قررت الانتظار وسط ادغال القمح واشتهيت اليوم ان تخدش الاشواك ساقي فمن يستطيع أن يمنعني ؟

والطريق الذي غيبك يا حبيبي لم يرحمني فيعيدك وذهب انتظاري هدرا وعندئذ احسست بأن الشمس قد أورثتني الصداع والشوك قد أورثني خدوشا دامية ٠

* * *

خبروني ماذا يحدث عندما يأبى الضوء أن يضيء ؟ عندما نفقد شحنات الطاقة ٠٠ عندما تصبح الطعوم متشابهة ولا جديد فوق الارض ٠٠ عندما نكدح من أجل الآخرين ٠٠ نهدر الشباب هدرا ولا من معين ٠٠ عندما يختفي البترول في العالم وتجمد حركة الطاغين ٠٠ شروطنا العادلة يا حبيبتي ان نصلي في القدس آمنين ٠٠ أين أنت كي أحس أني لست آلة من آلاتي ٠ علموني الفن في الشغل فتفانيت وأوشك أن أفنى ٠٠ علموني الصبر على أداء الواجب فصبرت وأوشك أن أتعلب ٠٠ أنا محتار من منا الظالم ومن منا المظلوم ٠٠ مصحتي الحزينة مدفونة في بلقع ومرضاي أصبحوا يموتون بين يدي لانني مثلهم أصبحت أعاني من القلب ٠٠ لم يعد الطريق جميلا وأنا أقطعه وحيدا باستمرار ٠٠ أنا لم أعد أنا يا حبيبتي ٠٠ سألت عنك فقالوا عادت الى السياحة ٠٠ ضاق بها البر على رحبه فامتطت الجو وطارت ٠

عندئذ قررت أن أعيش وسأعيش على الذكرى وأحلى ما فيها هو أن الشتاء يأبى إلا أن يكون صيفا فليكن صيفا كاذبا حتى يأتي الصيف الحقيقي ٠

ف٠ س٠

الاستراتيجية الجنسية في الشعر العذري

وجهة نظر سوسيولوجية

بقلم : الطاهر اللبيب الجديدي

ان الآراء المختصرة الى حد الاقتضاب هنا (1) متصلة بمحاولة المطالبة بالحق في المشاكل أو فيما هو مشكلي · ذلك أن تاريخ الأدب العربي كما كتب ولا يزال يكتب ليس له عموما حاسة الاحتمال · هو ضحية الدلالة النهائية ، مبني على الجزم الموروث الى حد الخروج عن الزمن ·

الاستشهاد بالنظرة الاكاديمية أو بالنقد الأدبي التاريخي مبتذل أو يكاد شاء مثلا ابن سلام أن يكون الاخطل وجرير والفرزدق في « الطبقة الأولى » على أن تكون للراعي منزلة بعدهم · بعد عشرة قرون ومرورا بالاغاني يختار شوقي ضيف الثالوث المحظوظ لتوضيح « التطور والتجديد في الشعر الأموي » · ذلك « لأن نقاد العصر العباسي وأدباءه اتفقوا على أنهم أشعر أهل العصر الأموي ، فهم الطبقة الأولى من الشعراء الأمويين ، وهم فحول الشعر العربي حينئذ وأقطابه الكبرى · وما يزال النقاد والأدباء المحدثون يعتنقون هذا الرأي ويؤمنون به [···] لأنهم خير من يمثل العصر » (2) ·

هذه فقرة نموذجية تفضي أوتوماتيكيا فيها « الطبقاتية » القديمة الى مفهوم كثير الاستعمال والغموض معا هو مفهوم « التمثيلية » (représentativité) إن لم تكن هناك أوتوماتيكية فأية معطيات ملموسة ينطلق منها حكم كهذا : « خير من يمثل العصر » ؟ ما معنى « مثل » في الميدان الشعري ؟ ما هي معايير

---

(1) تتضح دعامة هذه الآراء في صيرورة بنوية هي موضوع كتاب يصدر قريبا عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر تحت عنوان : « la poésie amoureuse des Arabes : pour une sociologie de la littérature arabe »

(2) شوقي ضيف : التطور والتجديد في الشعر الأموي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ، ص 131 ·

التفضيل (خير) ؟ ما مضمون هذا « العصر » ؟ الزمن ؟ زمن من ؟ زمن البلاط أو البدوى ؟٠٠ أسئلة لا جواب لها عدا أفعل التفضيل التى لا مساس لها بالتدليل العلمى فى اعتقادنا ٠

النقطة الأولى اذن هذا التناسب الطردى الغريب بين درجة « التمثيلية » ومكانة الشاعر القديمة ٠ لنمر على الجانب الايديولوجى لهذا الموقف الفكرى الجماعى الرامى عمدا أو عن غير عمد الى المحافظة على الموجود ٠ لنشر فقط وعلى المستوى التطبيقى الى نوعين من النتائج :

1) على المستوى الكمى ، غالبا ما يكون جهد مؤرخ الأدب فى تناول كاتب أو شاعر قديم تابعا لطبقتهما ٠ بتعبير آخر ، يكون هذا الجهد قارا نسبيا ، بل انه لمن المحتمل جدا أن تثبت دراسة عينة كبيرة استقرار النسبة حسابيا بين نصيب الراعى مثلا وكل من عناصر الثالوث الشهير عبر القرون ٠

2) على المستوى الكيفى ومن الوجهة المنهجية تؤدى « التمثيلية الطبقاتية » الى نتائج أكثر عقما : فالانطلاق من المسلمات القديمة لا يفضى الا الى نتائج قديمة ٠ لهذا لا نكاد نعثر على اكتشافات جوهرية فى الاعمال الادبية التاريخية وغالبا ما تغطى الشكليات عند المستشرقين الظاهرة نفسها (3) ٠

* * *

العذريون هم أيضا ضحية هذه الحتمية المفهومية التاريخية ٠ ما يبذل فى فهمهم من جهد أقل مما يبذل فى فهم غيرهم ممن لهم « وزن » أكبر فى الذاكرة الجماعية ٠ لذلك يخصص مثلا شكرى فيصل وشوقى ضيف معا فى كتابيهما « تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام » و « التطور والتجديد فى الشعر الأموى » حوالى 242 صفحة لعمر بن أبى ربيعة وحده و 48 صفحة لكامل العذريين ٠ واذا اعتبرنا عدد هؤلاء ثلاثة فقط (المدروسين عادة : جميل ومجنون وكثير) كان لكل واحد منهم 6،7 % من النصيب العمرى ٠ قد تكبر هذه النسبة أحيانا ، ولكنه من الغريب والمؤكد لما ذهبنا اليه قبل حين

---

(3) قارن مثلا ما يمنحه كل من بلات (Pellat) وفيات (Wiet) للراعى فى كتابيهما المعروفين حول الأدب العربى : سطرين ونصف ! ص 81 وص 43 على التوالى ٠

أن تكون النسبة نفسها موجودة فى كتب مختلفة : بين 33،3 % و 34،5 % عند بلاشير وبلات (4) • هناك اذن نوع من القانون التوزيعى يمكن تحديده يوما ، خاصة اذا تطور عندنا علم الاجتماع الأدبى واستعملت فيه الوسائل الكميـة •

والشعر العذرى اختزلت معطياته على المستوى الكيفى وأرجعت قديما الى مدلولات لم يغيرها الزمـن أو الذوق • هناك رتابة عذرية يختارهـا شكـلا ومضمونا حب الجزم والتأكيد : حسب أقاصيص عرفت فى العالم العربى ابتداء من القرن السادس أو السابع وطورت بعد ذلك خاصة فى العراق يتحاب رجل وامرأة وتحول العراقيل البشرية والمادية بينهما فيعيشان كل بعيدا عن الآخر ثم يموت الرجل شوقا فتلحق به المرأة غالبا •

ولهذه الاقاصيص نعوت فى الدراسات : هـى « منتحلة » فى معظمها . « ملفقة » « خيالية » الى غير ذلك • باختصار غير مجزوم بها • من هنا جاء الحذر أو الاهمال يدعمهما اهتمام بيوغرافى شخصانى • كثيرا ما يقال ان الشخصية العذرية ممسوخة • لكن لا يقال ان هذا لا يقل من أهميتها • ذلك أن « المسخ » أو « الاستحالة » ليس عملا مجانيا • هو تعبير حسب الوضع الذى تم فيه عن وظيفة دقيقة تقحمه فى بنية ذهنية جماعية معينة • الاسطورة ليست ريشة فى مهب الريح • إنها لا تتجه إلا الى وسط تكون لها فيه وظيفة

أما المضمون الشعرى « الثابت » فيصور ـ حسب الجزم الشائع ـ عالم جماعة عفيفة مشبعة بالاسلام : يتغنى العذريون بامرأة وحيدة بعيدة ، معرضين عن منكرات الجنس ، مما يجعلهم يتمتعون بوعد الحديث : « من عشق فعف فمات فهو شهيد » • هذه فكرة أساسية تدور حول الامتثالية العذرية من جهة والتحول المباشر أو الخام للحال المعاش فى الخلق الادبى من جهة أخرى • ويمكن الاستشهاد عليها بهذه الفقرة النموذجية هى الاخرى لشكرى فيصل والتى يرجع كل عنصر فيها مباشرة الى آية قرآنية أو الى حديث نبوى :

---

(4) عندبلاشير (Hist. de la Litt. arabe) : 12 صفحة لعمر و 12 صفحة للعذريين الثلاثة •
عندبلات (Langue et Litt. arabes) : 28 سطرا لعمر و 29 سطرا للعذريين الثلاثة •

« فالغزل العذرى تعبير عن وضع طائفة من المسلمين كانت تتحرج وتذهب مذهب التقى ، وتؤثر السلامة والعافية على المقامرة والمخاطرة ، وترى ان النفس أمارة بالسوء « إن النفس لأمارة بالسوء » وأن النار قد حفت بالشهوات على حد تعبير الحديث الشريف ، وأنه من الخير لها أن تصبر « ٠٠٠ مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا،ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا٠٠» وأن تلتزم ما أمر الله به أن يلتزم « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله » ٠ ولذلك آثرت هذه الطائفة أن تعدل عن شهواتها فكانت مثلا واضحا للتربية الاسلامية فى سموها وتعاليها » (5) ٠

ثمة إذن فى المفهوم الكلاسيكى العام لتاريخ الادب العربى ثلاثة اعتبارات على الأقل ترفضها الوجهة السوسيولوجية :

1) اعتبار طبقاتى مسبق يرتبط تقليديا بتمثيلية لا مضمون لها علميا ٠

2) اهتمام مفرط بالتحقيق البيوغرافى كنقطة انطلاق لفهم الاثر الادبى ٠

3) اتجاه متأخر نسبيا الى التطابقية التاريخية أو البسيكولوجية أو السوسيولوجية ٠

وهى تطابقية تهدف الى ايجاد علاقة مباشرة وضرورية بين العالم الادبى وعالم الواقع يعبر عنها عادة بـ « الانعكاس » ٠

ليس هنا مجال الحديث عن مساهمات علم اجتماع الخلق الادبى ومكتسباته٠ لنذكر فقط واستيحاء لمنهجية لوسيان غولدمان (Goldman) بتدرج يساعد على صياغة استنتاجاتنا حول استراتيجية العذريين الجنسية ويجيب فى الوقت نفسه عن الاعتبارات السابقة :

1) نقطة الانطلاق هى النص ذاته ٠ معنى ذلك أن التحليل الداخلى السامح بتحديد بنية عالم العذريين الشعرى يعتمد على استجواب الشعر لا الشاعر ٠

---

(5) شكرى فيصل : تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام ، مطبعة جامعة دمشق ، 1959 ، ص ٠ 232 ٠

2) ولأن هذه البنية المحددة لا يمكنها أن تكون من انتاج الفرد كبنيـة مفهومية فانه لا بد من ربطها بعد تحديدها ببنية العالم المجتمعي الاقتصادى الذى تنتمي اليه المجموعة المنتجة لهذه البنية المفهومية .

على أن فكرة المجموعة (أو الطبقة الاجتماعية كلما توفرت عناصر التعريف) تحاول أن تتجاوز اللجوء الى مفاهيم اعتيدت قلة الدقة فيها وبالتالى عجزها عن تعليل خصوصية الاثر : اذا كان التعليل البسيكولـوجي أو البسيكاتاليزى يهدم البنية بحثا عن الفردى فان التعليل بالعصر أو الجيل أو المجتمع الواسع لا يتجاوز ما هو مشترك بين مختلف الآثار المنتسبة الى العصر أو الجيل أو المجتمع الواحد .

3) عملية الربط هذه ليست عملية مطابقة . انها عمل تجريبي غايته تحديد نوعية العلاقة بين بنية العالم الشعرى وبنية العالم الواقعي . هذه العلاقة ليست لها إذا البساطة المصورة فى كتب تاريخ الادب . انها قد تكتسى أشكالا مختلفة لها صلة بتعقد مسيرة التبليغ ووسائل التعبير ووظائفه . وهو ما يجعل التطابقية المتناسية لهـذا التعقد تفضى الى أكثـر ما فى الأثـر سطحية وأقل طرافة وعمقا . على أن أقرب العلاقات الى الاثبات فى خصوص موضوعنا علاقة المجانسة البنيوية (homologie structurelle) التى سبق لغولدمان أن أثبتها (6) . ومهما يكن من أمر هذه العلاقة فالغاية الاشعار بأن وراء الجزم ورغم الجزم امكانيات متعددة يجب التفكير فيها وتجريبها على ضوء معطيات المنهجية الحديثة فى العلوم الانسانية عامة وفى علم الاجتماع الادبى خـاصة .

* * *

إن العالم العذرى موسوم بما يمكن أن نسميه المحاولة الفاشلة للتجاوز . هذا ما يكسبه دلالته فى فترة خاصة من التحول المجتمعي الاقتصادى :

محـاولـة التجـاوز :

يمكن الذهاب الى أنه بظهور مفهومى الأمة ودار الاسلام وجد المسلم نفسه فى عالم مغلق مفهوميا وماديا . بحيث أصبح من المستحيل فى هذا العالم المبنى

(6) أنظر خاصـة : Pour une sociologie du Roman, Gallimard, col. Idées, 1964

على التساوى النظرى العـودة الى العالم الملحمى أو التنافسى • الاستثمـار الصعلوكى (« فانى الى قوم سواكم لأميل ») وحتى العنترى لم يعد ممكنا : الحروب القبلية أو الطائفية وغيرها فى الاسلام ليست الا مطالبـة أو اثباتا للانتساب الى الأمـة •

ولعل العذريين أول من حاول فى الميدان الشعرى تجاوز هذا الوضع فى الاسلام • ذلك عن طريق « تجنح » فى شعور قاتم يائس يشدهم الى الانسان فى عالميته وعن طريق ايجـاد مادة لتراجيـديا انسانية فـى عالـم لا يعـرف التراجيديا من الوجهة المفهومية • كان عليهم اذا وعكسا لما هو سائد فى شعر عصرهم تجاوز العرضى أو الصدفى المباشر • هذا التجنح العذرى يتم خلال صعود مثالى نحو ما لا يمكن البلوغ اليه أو نحو لا بلوغية المثالية • تستقطب البطل وحدانية الحبيبة استقطابا كاملا ، ولكن هذه الحبيبة تبقى بعيدة أو مبعدة • يبحث البطل عن الوصل ، ولكن كلما أصبح هذا ممكنا نجمت عراقيل ما ••• يطول الحديث عن هذه الديالكتيكية ، ولكنها مرتبطة بما يسند للحبيبة من طبيعة خارقة للعادة ماديا وروحيا • والاوصاف التى توصف بها هذه الحبيبة تفضى فى نهاية الامر الى الاعتقاد بتجسد المناعة عموما و « العفة » خصوصا فى هذه الطبيعة نفسها عوض أن تكون ــ كما يعتقد ــ من إرادة البطـل •

على أن ما يجدر الوقوف عنده ــ لأنه مصدر المطابقية الكلاسيكية ــ نقل أوصاف الحبيبة وهى معروفة لمفاهيم دينية • فمقارنة بين أوصاف بثينة فى شعر جميل وصفات الله فى سورة الاخلاص مثلا تبين موازاة غريبة • نقول موازاة لأنه ليس من الضرورى أن تكون المسألة مسألة تأثير مباشر وبالاولى مسألة اعتقاد وتدين • بتعبير أوضح ، قد لا تكون لكلمة الله أو الجهاد أو الصلاة ••• الوظيفة نفسها فى الدين وفى الشعر • بل إن استعمال المفاهيم التقديسية قد يكون أحيانا من قبيل ما يستنكر عقائديا • العذريون أنفسهم يعرفون هذا ويعترفون به ، كما أن قصصهـم كثيرا ما تشير الى شعورهـم بالذنـب •

إذا كان أراغون (Aragon) استطاع أن يمنح حبيبته المكـان المخصص للاله ، فان جميلا لم يتردد فى قول ما نردده :

أصلي فأبكي في الصلاة لذكرها لي الويل مما يكتب الملكان (7)

كذلك مجنون (أو الضمير النوعي المجنوني) استطاع أن يقول :

أراني اذا صليت يممت نحوها بوجهي ولو كان المصلي ورائيا (8)

وأن يعبر عن شعور ثائر كهذا :

قضاها لغيري وابتلاني بحبها فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا (9)

هذا البيت جعل مناديا في الليل ينادي : « أنت المتسخط لقضاء الله والمعترض في احكامه » (10) ٠

نقل العناصر الدينية الى الشعر اذا ليس مباشرا ولا بسيطا ٠ ومن هنا جاءت أهمية استخراج البنية ٠ هناك في الشعر العذري بناء عالم بمفاهيم دينية أصلا ، ولكنها تكتسب بارتباطها فيما بينها بعد نقلها مدلولا ووظيفة جديدين ٠ في العالم العذري إله غائب نسبيا ولكنه يفرض المشهد ، الحبيبة هي الحاضرة بفضل غيابها ذي الوطء الكبير : صورة بثينة هي التي تحضر جميلا عند الصلاة ٠ هذا معناه أن التجنح أو الصعود كمحاولة للتجاوز ليس مطلقا وانما هو مفهمة صيرورية ومصيرية في آن واحد توازي صيرورة مجتمعية اقتصادية لها خصوصيتها (11) ٠

فشل المحاولة :

ليست هناك أية نية في الحكم على اعتقاد أو اليه ، ولكننا نذهب الى أن الصعود العذري يعبر عن أولى المحاولات الشعرية في تجاوز عالم الايديولوجيا

---

(7) ديوان جميل بثينة ، دار بيروت ، 1966 ، ص ٠ 50 ٠

(8) (9) (10) كتاب الاغاني ، وزارة الثقافة والارشاد القومي (مصور عن طبعة دار الكتب) ، الجزء الثاني ، ص 68 ٠

(11) هذه الخصوصية تجعل المقارنات اللاوظيفية المعهودة بين مضموني الشعر العذري والكورتيزيا (Cortezia) الغربية من قبيل المجازفة ٠ ولعل ترجمة العذري بالـ (courtois) في الفرنسية من ظواهر هذه المجازفة ٠

الاسلامية « المغلق » (I2)،عالم سدت فيه بالخصوص سبل العودة الى التنافسية الجاهلية ٠هذه المحاولة لا تعبر عن «الضمير التجريبي» (conscience empirique) فحسب ولكن أيضا أو أولا عما عبر عنه تعبيرا ثريا بـ « أقصى الضمير الممكن » (maximum de conscience possible) وهو ضمير مضمونه في الشعر العذري المحافظة على المستحيل ٠ بتعبير آخر ، تكون هذه المحاولة من طرف الخيـال الشعري بحثا فاشلا عن حل مثالي لمشاكل ألقتها على العذريين تغيرات عصرهم وظـروفـه ٠

ولتحديد طبيعة هذا الفشل يجب النظر في القوة الجاذبة للبطل العذري نحو القطب المعاكس لصعوده المثالي ٠ الصعود عبر الحبيبة خاضع لجاذبية جنسية ٠ تحديد هذا الخضوع يؤول الى تعرية « العفة » التي عرف بها العذريون قرونا طـوالا ٠

ما هي إذن هذه « العفة » العذرية ؟٠

يلاحظ أولا أن تعريفها كورع جنسي يكاد لا يوجد في الشعر العذري ذاته، بل هو من تأويل النثر القصصي (روضة العشاق ، تزيين الاسواق ، مصارع العشاق ، وما شابه هذه المؤلفات) حتى لقد يمكن القول بأن هذه العفة التي جعل منها حاصلة التناقضات التعبيرية عند العذريين ليست الا جانبا ثانويا أو عرضيا عندهم ٠ ذلك أن صعوبة العقبات المغذية للمثالية الرمزية لا تقضي أبدا على الميل الجنسي ولكن تضع حدودا (شعرية) لتنفيذه تنفيذا عاديا ٠

إن النظر في الشعر العذري يؤدي الى استنتاج المبدإ الأساسي التالي : كل وسائل اللذة ممكنة ما عدا العملية الجنسية نفسها ٠ وهو أمر في منتهـى الأهمية كما سنرى في توضيح العلاقة بين الانتاج العذري والعالم المادي ٠ الا أنه منذ الآن تبدو في موقف العذريين مناقضة لمبـدإ الاستهلاك الجنسي وموقف التشجيع عليه تشجيعا نعرفه جيدا : مواجهة لـ « الدورة الليلية » ولشهوانية تعدد الزوجات ولمباركة الزواج والعملية الجنسية بل والعضـو الجنسي وللذة الجنة كما يتصورها العامة (I3) ، ثم مواجهة ليالي عمر بن أبي

(I2) ليس في هذا الوصف تقييم بالمعنى السلبي ٠

(I3) انظر مثلا « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » لابن قيم الجوزية ٠

ربيعة الذى يقضى فيها مع الحبيبة كل الديون ، مواجهة لكل هذا يرفض العذريون العملية الجنسية ، بل وترفض أسطورتهم الزواج أيضا • لكن مع القيام باتصالات مادية أخرى لا يسمح بها الدين عادة :

رجل وامرأة يقضيان ليلة دون « منكر » : ذلك هو سيناريو العفة • لكن هل يقصد بالمنكر غير الزنا ؟ نصوص كثيرة لا تسمح بالتفكير فى رفض أكثر كبتا • هذا جميل مثلا لا يخفى لذة القبلة وشهوانية ما وراء القميص :

فياليـت شعـري هـل أبيتـن ليلـة كليلتنا ، حتى نرى ساطع الفجـر ؟
تجـود علينـا بالحـديـث ، وتـارة تجود علينا بالرضاب من الثغر (14)

* * *

وإنـي لمشتـاق الى ريـح جيبهـا كما اشتاق إدريس الى جنة الخلد (15)

كذلك لا يتعامى جميل على جسد بثينة (ولا نراه يكتفى اليها بالنظرة الاولى وهى التى لها « كشح كطى السابرية أهيف » (16) ومـا تحت حقوها « نقـا يتهيل » ! (17) أو هى « مخطوطة المتنين ، مضمرة الحشا ، ريا الروادف٠٠٠» (18) إلى غير ذلك من أوصاف مثيرة •

باختصار ، نجد أنفسنا أمام موضعة (Localisation) للرفض الجنسى ، هناك على وجه الحصر ، وخلافا لأجواء أخرى كالجو العمرى ، رفض لاستغلال « المنطقة المنتجة » • على أن هذه الموضعة لا تعبر ضرورة عن واقع معاش • والتساؤل : شعر أم حقيقة ؟ تساؤل قديم • اذا صدق الاغانى يكون عمر بن

---

(14) ديوان جميل السابق ، ص 24 •
(15) نفس المرجع ، ص 20 •
(16) نفس المرجع ، ص 31 •
(17) نفس المرجع ، ص 41 •
(18) نفس المرجع ، ص 60 • يمكن تأكيد المبدإ العذرى بهذه الاجابة : « قيل لأعرابى : ما تعدون العشق فيكم ؟ قال : القبلة والضمة والغمزة ، وإذا نكح الحب فسد » (ابن الجوزية ، روضة المحببين،مطبعة السعادة، مصر ، 1956 ، ص 328) •

أبي ربيعه قد أجاب مرة : « قد سمعتني أقول في شعري : قالت لي وقلت لها ، وكل مملوك لي حر إن كنت كشفت عن فرج حرام قط ! » (19) ·

العلاقة التجانسية :

العلاقة التجانسية بين عالم الاشباع أو الحرمان الشعرى والوضع المجتمعى الاقتصادى الواقعى علاقة لا ترجع فيها المرأة حتما الى نفسها · ان المرأة التى يبحث عنها فى العالم العذرى والتى تقبل وتضم وتغمز هى امرأة « بلا جنس » أو غير منتجة · الأسطورة أوضح : ليس للعذرى ــ وهو أعزل حتى من عقله أحيانا ــ إلا أن يتنازل عن « انتاجية » حبيبته التى يطالب بحقه فيها · وعموما يكون هذا التنازل لصالح أحد الاغنياء · وليس وضع التنازل القسرى مما يمكن أن يستوعبه أو يغطيه مفهوم سطحى كمفهوم العفة · هذه مثلا صورة مجنونية هى أبعد من جماليات التشبيه كما يراه البلاغيون :

ألا إن ليلى كالمنيحة أصبحت تقطع الا من ثقيف حبالها
فقد حبسوها محبس البدن وابتغى بها الربح أقوام تساحت مالها (20)

وإذن : **امرأة « بلا جنس » أو رأس مال غير منتج ؟**

كثر الحديث اليوم عن « الجنس والصراع الطبقى » وحتى عن دور الجنس فى الصراع من أجل الحكم · قد لا تخلو هذه المقاربة أو المقابلة من جدوى علمية ، ولكن يصرفنا عنها قلة المعلومات التاريخية الاقتصادية الخاصة بالعذريين

لقد أعيد النظر فى قبائل غينيا الجديدة الثلاث المدروسة من طرف مارغريت ميد (M. Mead) لاكتشاف العلاقة بين ظاهرتين : كون هذه القبائل لا تعرف عقدة أوديب وتبقى اجمالا فى المرحلة الفمية جنسيا وكونها لا تعرف وسيلة ولو بدائية لتكديس رأس المال (21) · لو كانت لنا معلومات كافية لوصلنا احتمالا الى علاقة بين وضع العذريين الاقتصادى و « استهلاكهم » إجمالا للنصف الأعلى للمرأة ، وهو ما قد يذكر بالمرحلة الفمية · نترك اذن هذا

---

(19) كتاب الاغانى السابق ، الجزء الأول ، ص 77 ــ 78 ·
(20) كتاب الاغانى السابق ، الجزء الثانى ، ص 56 ·
(21) Relmut Reiche, Sexualité et Lutte de classe, Maspéro, 1971

الافتراض لنمر الى تجانس أعم يمكن التدليل عليه بالانتقال من العالم الشعرى الى المجموعة البشرية الواقعية فى علاقاتها الاقتصادية الاجتماعية مع المجتمع الشامـل :

إذا استثنينا احتمالا « مثالين » هما عبد الله بن عجلان وعروة بن حزام تبين ارتباط العذريين بالمرحلة الثقافية الأموية : مات قيس لبنى حوالى68/687 وجميل بثينة حوالى 82 / 701 وكثير عزة حوالى 105 / 723 وقبله مات وضاح، كما عرف الأمويون أقاصيص مجنون ليلى ٠ الاكيد اذا ان البلورة الجماعية للمفهوم العذرى فى الشعر يرتبط بالعصر الأموى ٠ وهى بلورة لا ينقص من أهميتها « التحديث » الاحتمالى لنموذج أسبق ، تحديثا لا ينفصل عن وظيفة جديدة يؤديها : هذه الاشارة رد مسبق على استغلال متوقع لوجود النزعة العذرية قبل الأمويين (22) ٠

على أنه تجدر الملاحظة الى أن الانتساب شعرا الى العذريين لا يعنى ضرورة الانتساب الى قبيلة بنى عذرة المعروفة بوادى القرى : تنوع جغرافى يضاف اليه بعض الغموض فى انتساب البطون بعضها الى بعض ٠ لكن هذا وذاك لا يتعارض مع تعريف مجموعة حسب « ضميرها » : كما أن هناك شجرة نسب، هناك شجرة ضميرية تبلورها « نظرة للعالم » ٠

مهما يكن من أمر ، فسواء أكان ميلاد المفهوم العذرى والأسطورة العذرية فى بنى عذرة أو فى خليط قبائلى جنوبى كما يرجحه فاداى (Vadet) (23) فان بنى عذرة اعتنقوا هذه الاسطورة فعرفوا أنفسهم بها وعرفوا بها ٠ لهذا يمكن اعتبارهم عينة (ولكن عينة لا أكثر) لتفسير الظاهرة العذرية ٠

تدل المعلومات التاريخية القليلة على ما يلى :

1) قد يكون اصل بنى عذرة جنوبيا ، ولكنهم استقروا على كل حال منذ عهد جاهلى بوادى القرى الذى من أهم مميزاته انعزاله النسبى عن نجد شرقا وعن تهامة غربا انعزالا حدد من اتصالهم بـ « الخارج » أو وجهه على الأقل ٠

---

(22) سبق أن وقع استغلال هذه النزعة من طرف بعض مؤرخى الادب عندما قدم هذا العرض فى المؤتمر التاسع والعشرين للمستشرقين المنعقد بباريس بين 16 و 22 أوت 1973 ٠

(23) J.C. Vadet, L'esprit courtois en Orient, Maisonneuve, 1968 p p 473-475

لذلك لا نكاد نعثر عليهم الا فى مسيرة جنوبية شمالية (اتصالهم بقريش وبتبوك) .

2) لم يكن بنو عذرة فى الجاهلية يستغلون ثروات وادى القرى ذات الأهمية كانت الواحات المثمرة بأيدى اليهود وكان بنو عذرة « يعيشون أساسا قبل الاسلام على جباية يدفعها لهم يهود الواحات » (24) . كانوا اذا فى هامشية تجعلهم خارج الصنفين الأهمين المتقابلين فى ذلك العصر : حضر الحجاز تجارا كانوا أم ملاك أرض والبدو الرحل .

3) يبدو أن هذه الهامشية قد قويت مع ظهور الاسلام . فبغض النظر عن تردد بنى عذرة فى اعتناق الاسلام فى البداية كان استيلاء المسلمين على واحات اليهود قد أبطل على بنى عذرة وسيلة من وسائل الكسب الاقتصادى . النتيجة ربما : « لم يلعب بنو عذرة أى دور سياسى ولم يمدوا تاريخ الاسلام بأية شخصية ذات أهمية » (25) .

ماذا فى مستوى المجتمع الشامل ؟ الخيبة ! بعد النظام الجماعى اجمالا قبل الاسلام ، ثم بعد مشاريع العدالة الاجتماعية الراشدية وجد الأمويون أنفسهم أمام مشاكل سياسية يفرضها الدفاع عن ملك فردى يريد أن يقوى عبر انتشار الدين . لم يكن مع ذلك سبيل الى تصديق الأمل الذى كان غذاه السابقون .

الدخول فى الجزئيات يطول . الأكيد والمهم بالنسبة للموضوع أن المجتمع الأموى طور نظاما مرتبطا أشد الارتباط بالحياة المدينية . فلأنها كانت مركز السلطة السياسية والاقتصادية لم تستطع المدينة الأموية الا مضاعفة عدد المحوجين وتكوين بروليتاريا سدت فى وجهها الحياة النشيطة . موازاة لذلك ومع توسيع السوق وتكديس رؤوس الأموال زاد التوازن بين المدينة والريف اختلالا لفائدة الأولى . لم يعد الريف يوجه للمدينة غير الضرائب ! من هنا جاء تخلى الفلاحين عن أراضيهم واستيلاء كثير من أشراف العرب وفى مقدمتهم أهل السلطة والتابعون (ولاة ، بيروقراطيين ، تجار ، عسكريون ...) على أراض شاسعة سخروا لها أيادى عاملة شبه مستعبدة واستقروا هم فى المدن

(24) Levi Della Vida, Encyclopédie de l'Islam, 1ʳᵉ éd. art. Banu udra

(25) نفس المرجع .

فى هذه البنية المجتمعية الاقتصادية الجديدة ذات « الانتاج الموسع » لرأس المال المكدس ضد منفعة الريف وبالتالى ضد منفعة بنى عذرة المستفقرين باستمرار تطور توازيا المفهوم العذرى والمفهوم الشهوانى : استراتيجيتان جنسيتان تكون فيهما المرأة مرادفا « عاطفيا » لرأس المال الجديد :

دون جيونية عمر بن أبى ربيعة « تدخر » المرأة البلدية الشريفة الغنية فى شكل غيرة نسائية « منتجة » • أما النجاح ـ وهو مصور كارتقاء ارستقراطى مادى وأدبى ـ فينجر عنه شعور بالتشبع والرضا ليس فيه التوق الى تغيير الموجود •

وأما الحب العذرى فحب « مفارقة » (Aliénation) : لا يفضى «العمل» الذى يتحمل من أجله البطل كل الاتعاب الى نتيجة ايجابية • مادة العمل تعارض صاحب العمل ، تصبح غريبة عنه ، حتى أنه يصبح غريبا عن نفسه (25) ، نافيا لنفسه (26) • من هذه الوجهة تكون لبيت مجنون المذكور سابقا و « المتسخط فيه لقضاء الله » دلالة خاصة : لقد أراد ذكاء الاسطورة وحساسيتها أن يفقد مجنون عقله (وقد فقد ليلى) نتيجة لهذا البيت • كان ذلك لتأكيد السلب الكامل الموازى لانعدام التمتع الحيازى • فكرة إفضاء التنازل عن المرأة الى التنازل عن الملكية الاقتصادية فكرة معروفة فى الاسطورة العذرية (27) •

لكن أكثر الصور تجانسا مع هامشية العذريين الاقتصادية فى صيرورة التملك الأموى الذى أشرنا اليه هى صورة هذه المرأة التى يناشدها أو ينشدها العذرى ويمتلك جنسها أو انتاجيتها (ظلما) غيره من الاغنياء • هذه الصورة تعبير ذو معنوية خاصة (المرأة رمز متغير) فى وضعية تاريخية معينة •

---

(25) « وانكرت من نفسى الذى كنت أعرف » ، ديوان جميل السابق ، ص 31 •

(26) من هنا غرض الجنون فى الشعر والاسطورة •

(27) انظر مثلا قصة مجنون مع زوج ليلى : (يكتشف مجنون أنه باع ناقته لزوج ليلى فيرفض ثمنها) ، كتاب الاغانى السابق ، الجزء التاسع ، ص ، 204 ـ 205 •

يضاف الى ذلك طبعا عناصر أخرى تؤكد الهامشية كمطاردة البطل لا من طرف أهل الحبيبة فحسب ، بل من طرف السلطة التى سرعان ما تهدر دمه · كيف يهدر دم « عفيف » مهدد بالجنون أو مجنون ؟ ! أليس فى هذا تفطن من طرف هذه السلطة الى أن مفهوما تولد عن وضع غير عادل لا يمكنه تعزيزها ؟ اذا ربط بفكرة الظلم المحورية فى شعر العذريين وباتجاه هؤلاء الى تجاوز وضع سمح بهذا الظلم لا يكون هذا السؤال فى غير محله ·

باختصار ودون أية رغبة فى الجزم ـ ونقطة الانطلاق رفض التفسير النهائى وفصل المقال ـ قد تمكن معاودة النظر فى « المسلم به » من تحديد هامشية عذرية لا صلة لها بالعفة المسايرة أو بالمسايرة العفيفة للدين وللسلطة اذاك · هذه الهامشية كالهامشية المعاصرة فى كثير من بلدان العالم ليست عديمة الدور فى توجيه التاريخ ولكن المؤرخين يهملونها عادة · من هذه الوجهة لا يفضى الانطلاق من النص الى الحلقة المفرغة المعروفة (تفسير ما نعرف من الشعر بما نعرف عن المجتمع وما نعرف عن المجتمع بما نعرف من الشعر!) وانما قد يفضى الى كشف ما تغطيه المعرفة المسبقة ·

ط · ل · ج ·

◆ **حلقة دراسية عن الترجمة فى الوطن العربى :**

انعقدت بالكويت من 24 الى 31 ديسمبر الماضى حلقة دراسية حول « **الترجمة فى الوطن العربى** » تحت اشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم · وشاركت تونس فى هذا المؤتمر بوفد يتركب من السيدين عبد الوهاب بوحديبة مدير مركز البحوث الاقتصادية والاجتماعية والشاذلى بن زويتين ، مندوب الشركة التونسية للتوزيع · وبحث المؤتمر فى مواضيع شتى منها : وسائل تنسيق حركة الترجمة فى البلاد العربية ووضع خطة للدول العربية وللمنظمة العربية لترجمة الكتب الاساسية وتيسيرها للقارىء العربى · كما بحث فى وسائل النهوض بحركة الترجمة من اللغة العربية وإليها ·

وتقدم الوفد التونسى بدراسة ضافية فى هذا الموضوع وقعت المصادقة على كل المقترحات التى وردت فيها وأدرجت فى التوصيات النهائية ·

الى طفــــل

للشاعــرة البــرازيليــة "سيرس دي فرانتي"
CERES DE FERRANTE
تعريب محمد فرج الشاذلي

أيها الطّفل الباسط ذراعيه بعتبــة البــاب....
أيها الطفل الذي لا يعرف لـه اسما ولا نسبـا
أيها الطّفل الذي لا يدري من أين أتــى
أيها الطّفل الذي يبيت على الطّــوى
أيها الطّفل الذي لا يعرف للمدرسة وجهــا.....
أيها الطّفـل ، يا حافي القدمين.....يا بني !
اغفــر لي :
اغفر لي كبـريــائـي ،
وهـوائي المكيّف ،
وغـرفتي "الأنيقــة" في النّزل
وشعري النّـاعم المجعّــد ،
وأظافري المصقولة الملساء ،
وثـوبي الهفهــاف.....
وحذائي المشتـرى من متجــر.....
اغفــر لي يا بنــي !

إني لأعلم أني مذنبه إذ.....
أحيّا في رغد من العيش
وأنت حافي القدمين !
اغفر لي يا بني !
إني لأعلم أنك جائع ظمآن...
ظمآن إلى الحب.....والحنان
ظمآن إلى العطف والتفهم

(كوريتيبا في 1971/9/19)

مقاطع الى «ايروس»

بقلم : عبد الواحد براهم

— ① —

وجدت نفسى يوما فى قلب امرأة ، يغرق جسمى كله فى حوض من النجيع الأحمر ، وتطفو حول رأسى فقاعات لطيفة ، وردية اللون ، تلمع فى جباهها نجيمات باهتة الضياء ٠

أحسست بالدفء والنعمة ، وطاب لى المقام ٠

ما كان لى أن آمن بين شلال يتدفق من جهة ، وماسورة تسحب من الجهة المقابلة ٠ ما كان لى أن أطمئن وسط تيار يثير صفحة السائل الدافىء ٠٠ ويدس من تحتها بذور العواصف ٠

انفجرت كل الفقاعات الوردية من حولى ٠٠ انتحرت فى صمت ٠٠ طارت من جباهها النجيمات الصغيرة ، ولم يكن رأسى الصلب فقاعة من الحبب الأحمق الذى ينفجر هكذا ٠٠ بغباء ٠

قررت حينئذ أن أدير رأسى نحو شريان الخروج ٠٠ فولجته بعد قليل والنجمة الباهتة الضياء تلمع فى جبينى ٠

— ② —

كنت ملاكا مكلفا بحراسة حسناء صغيرة رائعة ٠٠ أمسك هالة قدسية شفافة على بعد قليل من رأسها الأشقر البديع ٠ وفى مدة خدمتى القصيرة ما تمكنت يوما من مواجهة محروستى ، فمهمتى كملاك حارس تدعونى دوما الى الوقوف من خلف ، وليس لى فى مثل هذه الحال إلا أن أكتفى بمشاهدة آثار فتنتها فى ملامح الآخرين ٠

قد تتاح لى فرص مشاهدتها فى المرآة وهى تسوى من زينتها ٠٠ ولكن لم تكن تنظر فى تلك الاحيان الا الى نفسها ٠٠ فتتقد عيناها افتتانا ٠٠ ولم يكن نصيبى إلا أن الحظ المشهد دون وجود ٠

ما التقيت يوما بعينيها ٠٠ ولكم رغبت فى ذلك ٠

يوم أن تحققت رغبتى بصدفة عجيبة ٠٠ نظرت جيـدا فى العينيـن ٠٠ فوجدتنى أبحر زمن العواصف ، وأدخل قلب الاعصار ٠
أصابنى الخوف لأول مرة فى حياتى ٠٠ وفى الغد قدمت استقالتى ٠

— ③ —

بعثت الى سطح الارض وحدى ٠٠ ذات يوم هادىء ٠ ليس حولى إلا الكهف والاحراش والسباع والكواسر ٠

الزمن هو الزمن ٠٠ لكن بلا قيمة ٠ وأنا هو أنا ٠٠ ولكن النهار طويـل ، والليـل أطـول ٠

فكرت فى الانتحار ٠٠ أشرفت من صخرة عالية على هوة لا قرار لها ، ثم فاجأنى الخاطر بأن نبتة صغيرة فى الكهف لم تحظ بعنايتى منذ أيام ٠٠

شىء ما يعض كبدى ٠٠ يجذب خطاى الى الوراء ٠ تـراجعت الى الكهـف وتلهيت برعاية البراعم وفكرى تائه فيما يشبه الحـزن ٠٠ الى أن استـولى على النعـاس ٠

فى أحلامى رأيت نبتتى تطول وينشق أحد براعمها عن زهرة عجيبـة ٠٠ عن شبح انسانى لم أر مثل ملامحه لينا ورقة ٠ ورف قلبى كعصفور مبلل ٠

فى يقظتى وجدت يدى تمسكـان بجـذع الزهـرة ٠ البـرعم الأحمـر فى شفتى ٠٠ ولكن ما سوى ذلك قد تبخر ٠

من يومها ذهلت عن مشروع الانتحار ٠٠ ونشط خيالى بصـورة عجيبـة يحاول استعادة ذلك الشبح الذى اقتحم أحلامى ٠٠ ثم غاب وترك فى نفسى مثل هذه الحيرة ٠

كثيرا ما وجدت نفسى بعدئذ أمسك قطعة حجر وأجسم على جدران الكهف رسوما وأشكالا غريبة ٠٠ رسمت وجوها تبسم وأخرى تبكى ٠٠ رسمت أطيافا تظهـر فى الأحـلام ثم تختفى ٠٠ رسمت قلوبـا داميـة ٠٠ ورسمت خيـلا جامحة ٠٠ وصحارى تملؤها الأطياف ٠٠ وفلوات مقفرة ٠

لما عثر الناس بعد قرون عديدة على رسومى أطلقوا عليها اسم الفن ٠

أتراهم عرفوا ما كانت تجيش به نفسى ؟

ع٠ ب٠

استجوابات ... فدائية ..

شعر : محمد الشابى

ألف سد .. ما
بيننا ، وبحار ...
وشتاءات ، كلها
امطار ..
وانا ، تحت الريح ...
ازرع لغما .. كله ، يا
حبيبتى ازهار ...

إن بى من
هواك ، اعطر
منديل .. وأغلى ما
يحفظ التذكار ..
فانا ثائر ..
يحبك ... لا يحسن
إلا المحبة الثوار ..
وأحاسيسى ، منك
ملأى حنينا ...
وحنين الرجال ، فيه
نـار ..

هذه وحشة التراب ...
بقلبى ..
وجراحات الارض ...
والأشجار ..
ولقد أينعت ،
بذهنى كروم ...
واستفاقت ، فى
داخلى ، اغوار ..

يا فلسطين ، هذه الارض ...
ماء .. وطيور
ثلجية .. واخضرار ...
غير أن الزيتون يا
املى ، قد
داهمته الرياح ...
والامطار ..
بحنينى القاك ... كل
مساء .. مثلما تلقى
ارضها الأطيار ...

سامحينى ، إن كنت
مغتربا عنك .. ولم
يأت بى اليك
قطار ...
وتبقت حقائبى ،
فى المحطات .. طويلا ...
وملها الانتظار ..
فانا قد
غيرت شكل
حبيبى .. واعترانى ، فى
رحلتى ، دوار ...

يا فلسطين ، يا
كتابا جميلا ..
ما اشتراه الملوك ...
والتجار ..

انا ما عدت
طيبا .. ووديعا .. ليس
يجدى تأدب ...
ووقار ..

إننى داخل إلى
مدن العالم ، دوما ، وفى
يدى النار ...
داخل ..
داخل انا ، مثلما من
ثقب الباب
تدخل الأنوار ...
فانا السندباد .. قد
صرت طيارا ، لأنى قد
ملنى الابحار ..

يا فلسطين ليس
يفتح ...
ارض القدس .. إلا الطغاة ...
والأشرار ..
فبلادى قد ضيعتها الأمانى ....
وإذاعات الظهر .
والأخبار ...
كل ما قد بثوه .. عن
ارضنا فيه
سلام ... وداخل القدس
نـار ..

فتشوا فى
تخيلى .. بحثوا فى
كلماتى ... ولاحظوا ..
واستشاروا ...

فشريط متلفز عن
حياتى .. وتعاليق ، كلها
اسرار ...
وانا ، رغم القهر ،
تنثال احلامى ويقوى ، فى
داخلى التذكار ..

خففى يا
حبيبتى ، خففى بعض
احاسيسى ، اننى
انهار
قد اضاع الاعراب ارض
بلادى ... وأضاعوا
خيولهم واحتاروا ..

رحلات الملوك كانت
بحيرات ، لديها
تستمتع الأنظار ...
ومفاتيح ..
فضة ، تفتح القصر الذى
تجرى تحته الانهار ...
وانا لا
علاقة ، فى
يدى ، من يوم ان
ضاعت تربة
وديار ..

نحن يا
ارضنا انتظرنا
طويلا .. وتعبنا ..
وملت الأبصار ..
من زمان ... ونحن

فوق الكراسى .. ما بدا
فوق المسرح المختار ...
قيل يأتى فى
منظر .. قادم ، قيل
نجحنا ... ووزعت
ادوار

جاء طفل
يبكى ... وجاءت
نساء .. وحدود
رملية
وقفار ...
ورأينا المسيح .. وجها
حزينا ...
يسكن الخوف ، فيه
والاسرار ..

يا فلسطين .. ان
بى ألف
حب .. وبصدرى
زوابع ..
وغبار ...
كل لغم ..
زرعته ... هو
شعر .. وقليل فى
شرقنا الأشعار ...
ورحيلا .. وسفرة نحوك ،
إن الفدائى ... عمره
اسفار ..

يا فلسطين .. ما
تبقى لقاء

عربى ... وقمة ...
وحوار ...
كل درب ..
أمامنا ، لا
يعدى ...
فدروب الكلام ، عندى
قصار ..

لو رفاقى جميعهم ،
عوضا من ان
يناموا ، فوق الكراسى ،
ساروا ...
وتمشوا ، على الرصيف
قليلا ، كل يوم ، وخيروا
واختاروا ..
لاستراح الحمام ،
تحت السقوف ... واستعاد
صفاءه نوار ..

اننى عاشق بعمق
جراحى ... ومحب ، كما
يحب الصغار ..
فتبقى فى
عمق صدرى ، إلاها ..
ونبيا .. من
حوله الأنصار ...

ألف سد .. ما
بيننا ، وبحار .. وشتاءات ..
كلها امطار ..

م. ش.

ورقـــات فى ملـف :

العلاقات الثقافية بين تونس ومصر

خـلال القـرن الثـامن عشر م.

بقلم : رياض المرزوقي

ان قضية التبادل الثقافى بين أجـزاء الوطن العربى ، والتنـافس الادبى بينها والمفاضلة عنصر من العناصر الاساسية فى حيـاة مختلف المجتمعات العربية القديمة ٠

ولقد عرفت تونس فترات تأثر كثيرة بالمشرق خـلال تاريخها الطويل ، حتى العهد التركى الذى ضعفت فيه مظاهر الثقافة العربية فكادت تضمحل فى خضم الحروب والفتن ، وسيطرة التخلف الذهنى ٠

ومع مطلع القرن الثامن عشر ، بدأت فترة أدبية جديدة ، ازدهرت خاصة فى عهد علي باشا الاول (1148 ـ 1169 هـ/1735 ـ 1756 م) ، وكان التأثر بالمشرق فيها خاصية أساسية ، وقد تجلى هذا التأثر فى مظهرين رئيسيين ٠

1 ـ الرحلة فى طلب العلم :

مما لا شك فيه أن المشرق (وخاصة مصر) كـان يمثل بـالنسبة للمغرب منهلا ثرا للثقافة ، وفى كتب التراجم ذكـر لعشرات من العلمـاء التونسيين سافروا اليه طلبا للعلم ، خصوصا من صفاقس (1) ٠

---

(1) راجع « شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية » لمحمد مخلوف ٠ ط ٠ القاهرة 1350/1931 ، التراجم عدد 1264 (ص 323) ، 1266 (ص 324) ، 1271 (ص 326) على سبيل المثال ٠ أو « نزهة دائرة الانظار فى علم التواريخ والاخبار » ويعرف باسم (تاريخ مقديش) لمحمود مقديش ٠ طبعة حجرية بتونس 1321/11 ص 194 ، 197 ، 205 وغير ذلك ٠

وكـان (الأزهر) يحتل في هـذا المجال مكانة كعبة القصاد (2) ، فكان التونسيون يجاورون فيه سنوات ، ثم يعودون لينتصبوا للتدريس أو القضاء أو الوظائف المختلفة ، الا أنه لا ينبغي أن ننظر الى هذه الرحلات ـ سواء منها ما كان الى مصر مباشرة ، أو الى الحج مع التوقف بها في الطريق ـ على أنها مجرد مبادلة سلبية ليس للتونسيين فيها الا الأخذ ، فنحن نرى في هذا العهد اديبا تونسيا يرحل الى مصر ، فيثبت فضله وينتصب للتدريس بها . (3)

2 ـ المراسلات والمساجلات :

وقد انجر عن هذا الاتصال معرفة متينة ربطت بين شيوخ الأزهر وأدباء تونس ، وجعلتهم يتبادلون الرسائل والكتب .

وقد كانت هذه المراسلات غالبا ما تخضع للقواعد المرعية في ذلك العهد من افراط في استعمال المحسنات المعنوية واللفظية ، و « الجمع بين شقي البلاغة » ـ أي النثر والشعر ـ أما مواضيعها فتحوم حول المحاور التالية :

- مدح مصر وعلمائها . (4)
- تبادل الثناء على الكتابات ، والتقاريظ . (5)
- وربما التكليف ببعض المهام الشخصية (6).

---

(2) انظر الوثـائق المذيلة لهذا ، و « لمحة في تاريـخ الازهـر » لعـلي عبد الواحد وافي ط. مصر . 1355/1936 . ص 62 ، 65 ، 67 .

(3) هو الوزير حمودة بن عبد العزيز (المتـوفى 1202/1788) : انظـر الكتاب الباشي تحقيق محمد ماضور . ط . تونس 1970 . ص 21 .

(4) (5): انظر الملاحـق .

(6) يبدو ذلك منطقيا ، وان صعب علينا اعطـاء دليل ثابت عليـه ، لان أغلب الرسائل التي عثرنا عليها لم يذكر فيها المرسـل اليه ، لكننا نذكر على سبيل المقارنة رسالة مثبتة بديوان الغراب المخطوط ، وجهت الى محمد الحسيني الفاطمي العلوي الهاشمي (ولم نتوصل الى معرفته) ومنها ما يلي : « ... ان الامـر الذي كلفتمونـا به قضينـاه على وفق المراد ، ولم يتيسر لنا الا الآن لعدم وجوده في البلاد ، وغيره لا يليق بجنابكم الرفيع ... » وفيها اشارة واضحة الى قضاء الغراب لبعض المهام الشخصية ، وقد كلفه بها أحد المقيمين خارج تونس .

أما المنافسات الأدبية ، فلنا عليها أمثلة منها :

ـ **المقامات الباهية** : وقد كتبت بمناسبة بناء المدرسة الباهية سنة 1160/1747 ، وكان أول من ألف في ذلك شخص نرجح أنه مصري ، ويدعى أحمد هويدي (7) ، وقد كتب غيره من المصريين في الموضوع نفسه (8) وكانت المقامات التونسية تقليدا ، حاول أصحابه التفوق فيه على النماذج المحكية ، وأشاروا الى ذلك ، وحيوا الأدباء المصريين • (9)

ـ **الأشعار المتبادلة** : كقصيدتي الغراب والحفناوي المشار اليهما في الملاحق•

وهكذا نرى أن المشارقة كثيرا ما كانوا المثال المحتذى بالنسبة للتونسيين ، بل إننا نكاد نذهب الى أن بعض الفنون الأدبية (كالمقامة) انتشرت بفضل اقبال التونسيين على النماذج الشرقية (10) •

وينجر عن ذلك بصفة حتمية ، نظرة استعلائية من المصريين ، باعتبارهم الأصل المعول عليه،وان أقروا بفضل من تفوق من التونسيين،ويتجلى ذلك في ما

---

(7) هو مؤلف مقامة يبدو من كتابات معاصريه أنه أثار اعجابا كبيرا ، لكننا لا نكاد نعرف عنه شيئا ، ويذكر الشاذلي النيفر (العمل ـ الملحق الثقافي 12/2/69) أنه تونسي مغمور ، بينما نرى أنه مصري ، ولنا على ذلك أدلة منها : المقامة الباهية لمحمد الورغي ، ويذكره فيها ضمن شيوخ الأزهر • (انظر مقامات الورغي • تحقيق : عبد العزيز القيزاني تونس 1972 ص 53 •

(8) انظر ابن أبي الضياف : اتحاف أهل الزمان •

(9) مثال ذلك المقامة الباهية للورغي (مقامات الورغي ص 41 ــ 54) وهي موجهة الى مجموعة من الأدباء المصريين وشيوخ الازهر •

(10) لهذا السبب انتشرت نسخ المقامات المشرقية في خزائن المخطوطات الباقية من العهد الحسيني (انظر فهرس المكتبة الاحمدية لعبد الحفيظ منصور • بيروت 1969 • ص 82 وما بعدها ، وفهارس المخطوطات بدار الكتب الوطنية •)

والملاحظ أن عددا من شيوخ الازهر في القرن الثامن عشر تركوا مقامات لا شك أن التونسيين اطلعوا عليها (ومن أشهرهم : يوسف الحفناوي ـ بروكلمان : الملحق II ص 392 ، والاعلام للزركلي/9 : ص 308) •

قاله يوسف الحفناوى عندما اطلع على شعر الغراب : « كم فى الزوايا من المزايا ! » (II) ، وإننا مهما كان تأويلنا لهذه القولة ، لا نستطيع أن نهمل كلمة « الزوايا » بما تحمله من تجاهل واحتقار .

ويدعم ما ذهبنا اليه ، من وجود موقف مصري خاص تجاه التونسيين آنذاك ، ما أثبت فى المقامة الخمرية لحمودة بن عبد العزيز – وهو خير من يستطيع الحكم على هذا الامر لانه أقام مدة بمصر ، ودرس فى الأزهر ، فتعرض الى المنافسة والقدح دون شك ، فهو يقول متحدثا عن بعض التونسيين ، وقد أظهر براعة فى وصفه الشعرى (للازبكية) أثناء جلسة أدبية : « ... فما من أحد من الجماعة الا استحسنه ، وكتبه عنه ودونه ، ثم كأنهم داخلهم **الحسد** ، الذى لم يخل منه – الا من عصمه الله – جسد ، فقالوا له : هل فى بلدك (تونس) ، التى **تزعم** أنها لمن أتاها تونس ، مثل هذا المنظر الرائق ، أو قريب من هذا الطراز الفائق ؟ فقال : يا عددى وعمادى ، وطريفى من الناس وتلادى ، **ما لكم ولبلادى** ؟ [...] ثم شرع فى اقامة الحجة ، وتبيين **المحجة** ، فى **تفضيل** بلده على بلدهم ، **وتمييز غماره من ثمدهم** ، حتى بهرهم ببيانه ، وقهرهم ببرهانه ... » (I2)

ويدخل هذا – حسب ما نرى – فى نطاق المنافسة التقليدية بين المشرق والمغرب العربيين .

لكن هذا لا يمنع وجود اعجاب متبادل بين المصريين والتونسيين واعتراف بفضل هؤلاء ، وأولئك ، من ذلك قولة أحد المصريين متحدثا عن الغراب المذكور : « لا أعلم أحد (كذا ؟) فى هذه الاعصار المتأخرة أدرك شيئا و (كذا ؟ ولعلها شأو) الغراب لا من المشارقة ولا من المغاربة » . (I3) .

ومن ذلك ما نجده يغمر الادب التونسى فى تلك الفترة من اعجاب بالمصريين تناهى ، وقد تعرضنا الى ذلك ، وسنعود اليه فى الملاحق .

وعلى كل ، فاعتقادنا أن هذا التأثر يبلور محاولة من التونسيين لمقاومة تيارين جارفين ، كانا يشكلان فى ذلك العهد خطرا على العربية فى جمودها المعتبر مثاليا عندهم وهما :

(II) انظر تاريخ مقديش II ص 20I .
(I2) انظر الكتاب الباشى ص 380 .
(I3) انظر تاريخ مقديش II ص 20I .

ـ **تيار اللغات الاخرى** ، وبصفة خاصة التركية ، وتمثل لغة الحكم والدواوين ، وخاصة الجيش ، مع ما تمثله من ارتباط بالخلافة ، وتيار اللغات الاوروبية الذى بدأ يزحف مع بداية تكون الجاليات ، والمعاملات (14) .

ـ **تيار اللحن والعامية** : والملاحظ أن هذا الادب « الارستقراطى » يعتبر بعده عن المجتمع محافظة عليه ، ولذلك انتشرت أغراض المناسبات (15) والاخوانيات (16) ، وهى تمثل انغلاقا اختياريا .

ويمثل هذا التأثر أيضا محاولة لبعث الشخصية التونسية ، انطلاقا من عناصر ثابتة تقليدية ، وربما كان اتجاه أدبائنا للمشرق طريقة للشهرة وذيوع الصيت ، فسوق الادب بالمشرق أوسع ، وامكانيات الاعلام فيه أكبر .

ومهما كان سبب هذا الاتجاه الظاهر أو الخفي ، فقد أثر المشرق (وخاصة مصر) بما لا مجال فيه للشك فى زعماء الادب التونسيين فى القرن الثامن عشر م : ونذكر منهم محمد الورغى ، وعلي الغراب ، وحمودة بن عبد العزيز ... ورجاؤنا أن تنشر أعمالهم المخطوطة ، حتى لا نكتفى بمثل هذا التخطيط الاطاري لفترة من تاريخنا الثقافى ما زالت مجهولة تنتظر من يكشف مجاهلها .

ملحـــق 1

قصيـــدة لعلي الغـــراب

فـى مـدح مصـر وعلمـائهـا

[من الكامـل]

1 ـ ما للمدامـع كـــل حين تـذرف وقوي شوقى في الحشا لا يضعف ؟

---

(14) نجد ذكرا للجالية الفرنسية بتونس فى اتحاف أهل الزمان 11 ص 167 ، وذلك سنة 1770 ، مما يـدل على أن استقرار الاجانب بدأ منذ القرن الثامن عشر . م .

(15) من ذلك أشعار التهنئة . بختان الامراء الحسينيين سنة 1178/1764 . وتبلغ الخمسمائة بيت (راجع الكتاب الباشى ص 138 ـ 164 .)

(16) من ذلـك مقامتا الغراب العبائيـة والهندية (مخطوطتان) ، والمقامة الباهية للورغى .

أصبو الى ذكر الحمى فهوى الحمى   باق ومحض وداده لا يصرف
ما هب ريح صبا ولوح بارق   الا وأقلع فلك صبرى يجذف
وغدوت أهتف باذكار أحبتى   شغفا وعلمت الحمائم تهتف
ما للعذيب ملتفت كلا لا و لا   للرقمتين حشاشتى تتلهف
لكن لمصر منازل الفضلاء من   كل بمرآه يعافى المدنف
بلد له فى الأرض قدر قد علا   فى كل عصر لم يزل يتشرف
تزهو بأزهرها الذى علماؤه   كحدائق منها الأزاهر تقطف
منهم شهي الذكر ، سيد دهره   وكماله فى الفضل لا يتكيف
علم له فى العلم قدر شامخ   وله بامداد الاله تصرف
نعنى أبا عبد الاله محمدا   يعزى لحفنى فى الأنام ويعرف
ثم التفت لشقيقه البحر الذى   من موجه كل الأفاضل تغرف
وله من الآداب كل لطيفة   جلت أرق من النسيم وألطف
هو أشهر العلما وأعلم عصره   وعزيز مصر أبو المحاسن يوسف
وترى الدمنهوري ليثا ضاريا   فى البحث من وثباته يتخوف
شيخا هماما ، فاضلا ، علما له   عن كل محجوب العلوم تكشف
واقصد حمى الحبر العلي مقامه   قدرا وفى كل الفنون يؤلف
يدعى بعبد الله منسوبا الى   شبرا له بحلى القريض تصرف
والى الجليل الحبر من يعزى الى   نفرا بضاف من العلوم الأشرف
أمست فنون العلم طوع ذكائه   وغدا لبارد ثغرها يترشف
واعطف الى المولى أبى الحسن الذى   عن فضله وكماله لا يعطف
يعزى الى أرض الصعيد ولو هم   لسما الصعود عزوه كانوا أنصفوا
وانزل حمى الشيخ البليدي الذى   بلدان مصر به تعز وتشرف
هو شمس علم يهتدى بضيائه   من ظل عن طرق الهوى يتعسف
والملوى له مقام أصبحت   لصعوده شهب العلى تتكلف
يبدي نكاتا فى البيان كأنها   حلي بها سمع الورى يتشنف
وحذار من ليث العرين ومن غدا   فى كل فن قرنه يتخلف
أعنى أبا العباس أحمد من الى   سنهور ينسب فى الأنام ويعرف
هذا ولا تقديم من قدمت أو   أخرتهم نقص لهم وتشرف
بل من تعذر ذكرهم أن لا يرى   متقدم منهم ولا متخلف
وبها سواهم سادة وأجلة   كل بهاتيك الفضائل يوصف
فعليك يا مصر السلام واننى   طول المدى بك للقا أتلهف

ـ التعليـق

1 ـ المصـــدر :

مجمع الدواوين ـ لمحمد السنوسى ـ جزء خاص بالغراب • مخطوط رقم 16633 بدار الكتب الوطنية •
ـ (بهجة النفس والعين) ـ ديوان الغراب • مخطوط فى نسختين :
أ ـ رقم 18648 بمكتبة حسن حسنى عبد الوهاب •
ب ـ رقم 12634 بالمكتبة الأحمدية ، بدار الكتب الوطنية •

2 ـ اختلاف الروايات :

لا توجد اختلافات كبيرة ، وقد فضلنـا أكثر الروايات منطقية مهما كان مصدرها :
البيت 5 : مجمـع : ما بالعذيب هبت •••
البيت 11 : ديوان : نعنى أبا عبد الله •••
البيت 17 : مجمع : واقصد الى •••
البيت 23 : ديوان : بلدان مصـر به تعد وتتحف •

3 ـ الأعـــــلام :

ذكر فى القصيدة عدد كبير من الشيوخ سنترجم فيما يلى لاشهرهم :
البيت 11 : محمد بن سالم الحفني الشافعي : تولى مشيخة الازهر الى وفاته سنة 1181/1767 • وقد ذكـر فى المقامة الباهية لمحمد الورغى (انظر مقامات الورغى ـ تحقيق عبد العزيز القيزانى ـ تونس 1972 ص 54) ـ راجع الاعلام للزركلى / 7 ، ص 4 • ولمحة فى تاريخ الازهر ص 89 •

البيت 14 : يوسف الحفني (الحفناوى) : المتوفى 1176/1763 : لـه مقامتان ، وديوان شعر وشروح وحواش ـ راجع الأعلام للزركلى / 9 ، ص 308 •

البيت 15 : أحمد بن عبد المنعم الدمنهـورى الشـافعي : المتـوفى 1192/1778 : شيخ الازهر • له تصانيف فى الفقه ـ راجع الاعلام 1 ص 158 ، ولمحة فى تاريخ الازهر ص 89 •

البيت 18 : عبد الله الشبراوى الشافعي : المتوفى 1171/1758:شيخ

الازهر ، فقيه له نظم ـ راجع الاعلام / 4 ، ص 274 ، ولمحة : ص 89 . وقد ذكر **الشيخ الصعيدى** (البيت 22) ، **والشيخ البليدي** (البيت 23) فى تاريخ مقديش II ص 197 .

4 ـ الظــروف :

« لما رحل أستاذنا أبو الحسن سيدى علي الأومي لمصـر للقاء الافاضل والاخذ عنهم وكان أبو الحسن الغراب من تلاميذه كتب أبى (كذا ؟) الحسن الغراب قصيدة امتدح بها الجامع الازهر وعلماءه ونوه بشأن الشيخ الحفناوى محشي الأشموني ، فلما وقف الشيخ الحفناوى على القصيدة وظهر له بلاغتهـا وفضل قائلهـا وبلاغته وقوة عارضته فى الفنون الادبية قال ـ رحمه الله ـ : كم فى الزوايا من المزايا ! .. »
(تاريخ مقديش II ص 201)

5 ـ الشاعــر :

علي الغراب (1135/1183 ـ 1722 ؟ /1769) : مـن شعراء البـلاط الحسيني خصوصـا فى عهد علي باشـا الثانى ، له ديـوان متوسط الحجـم .
(انظر خاصة : الكتاب الباشى لحمودة بن عبد العزيز ـ شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف تـاريخ مقديش ـ الأدب التونسى فى العهـد الحسينى للهادى حمودة الغزى ـ عنوان الأديب لمحمد النيفر ـ مجمل تـاريخ الادب التونسى لحسن حسنى عبد الوهـاب ـ مقدمة ديوان الغراب المخطوط : « بهجة النفس والعين » ...)

ملحـــق 2

رســالة من على الغراب

الى يوسف الحفناوى (مقتطفات) :

الى تاج الدولة الادبية وحامل لوائها ، ومالك سرير البلاغة وديوان انشائها ، الجانية يـد فكره من ثمار الفصاحة مجانيهـا ، والتاركة مراتب عليائـه أعالى المراتب أدانيها ، أصبح (الصاحب) فى الآداب يحذو حذوه ، و (الخليل) فى

الاعراب ينحو نحوه ، و (حبيب) يتمسك في القريض بأهدابه ، و (البديع) يستمد من بدائعه وآدابه ، الحبر الفاضل ، (والبحر المديد الكامل) ، المساوى بالعفو عن الخطا في الآداب بين ذوي (المحاسن والمساوى) ، الشيخ الاستاذ ، والعلم الملاذ ، أبي المحاسن يوسف بن محمد الحفناوى ، لا برحت رباع المعالى مأهولة بفضائله وفواضله ، وعواطل أجياد الليالى محلاة بقلائد أوزانه وفواصله ،

أما بعد ، فان رسالتنا هذه تسلم اليك ، بسلام منا وبركات عليك ، سلام تنفك عن طيب أزرار ختامه ، وتتفتق عن أزهاره أكمامه ، ويليه ، أعز الله المولى ، وخلد دولة الادب عليه ، ولا زال صارم ذهنه يطوع عصاة العويصات حتى تقر بالرقية له وتذعن بالاطاعة اليه ، ان مما أضع لكم على وجهه نقابا ، وارفع بينك وبينه حجابا ، أنه كان برزت من العبد فرائد ، نظمها عقدا في ذكر الافاضل من أشياخ يزرى جمعها برياحين الروض (الأزهر) وجه بها الى تلقاء حضرتكم السنية بالخصوص ، صدر فيها بمصدر ذكركم [......] فزعم حامل ذلك العقد المودع لديه ، المشرف بشرف المضاف اليه ، أنه حين ناوله المولى ، سمح له بوعد بمنظوم جوابا أحرى بالمقام وأولى ، وأنه ألجمه الحياء عن طلب الوفاء منه في ذلك الزمان ، وما علم أن الحياء مقرون بالحرمان [......] فالمطلوب من المولى أن يشرف العبد بايقافه على بعض آيات من عجائبه ، ليتنزه طرفه في رياض بيانه وكتائبه ، وأن لا يلتفت الى قول من يثنى عزمه عن ذلك لو اذا ، أو يقول له : (يوسف أعرض عن هذا) ،

هذا ، وان الوارد على ابوابكم ، والمتطفل على اعتابكم ، النبيه الاريب ، والفطن اللبيب ذو الادب المطرب ، والفائز بنظمه ونثره على أدباء تونس والمغرب ، من ظهر له في الادب صيت وشأن ، فلان ، ....

التعليـــق :

اعتمدنا على نفس المصادر ، وسلكنا نفس الطريقة في التحقيق ، وحاولنا أن نثبت أهم ما يوجد في الرسالة مع عدم الاغراق في الصناعة اللفظية وهى طابع العصر ، والمحافظة رغم الحذف على خصائص الرسالة من حيث المضمون والشكل .

وأن أهم النقط التى نود ابرازها هى :

١ ـ لهجة الكاتب عند مخاطبته للحفناوى ، وهى لهجة اكبار وتعظيم للمبالغة فيها نصيب ـ على عادة العصر ـ تدعم ما ذهبنا اليه عندما اعتبرنا مصر مصدرا ثقافيا للتونسيين آنذاك ، فالغراب هنا يلح على

جواب الشيخ شعرا على قصيدته ، وكأنه ينتظر فريدة الدهر ، ولعله طامع فى تقريظ الشيخ لقصيدته ، ومدحه له ٠

2 ـ بروز شخصية الكاتب فى الفقرة الاخيرة وان كان ذلك باحتشام (التفوق على ادباء تونس والمغرب فقط) ، الا أن ذلك يدعم ما ذهبنا اليه من بداية تكون للشخصية التونسية ومحاولة للمنافسة مع المشرق ٠

3 ـ تطابق الذوق الادبى فى المشرق والمغرب فى القرن الثامن عشر م ٠ ، باعتبار التصنع ، واظهار البراعة اللغوية ، والتورية (وضعنا بين قوسين ما وضح لنا منها) مثالا أعلى للكتابة ، فليس من الغريب اذن أن نجد فى ديباجة الرسالة ذكرا لأعلام المدرسة اللفظية فى الشعر (حبيب بن أوس وهو أبو تمام) ، وفى النثر (الصاحب بن عباد ، وبديع الزمان الهمذانى) ، ومقارنة للحفناوى بهم ، بل وتفضيله عليهم على عادة العصر فى الغلو ٠

ر٠ م٠

◆ **منشورات دار « سندباد » الحديثة :**

أحدث ما أصدرته دار « سندباد » للنشر بباريس كتابان :

① ـ « قرية ظالمة » من تأليف : كمال حسين عميد **جامعة عين** شمس سابقا وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وهو حائز على جائزتى الدولة فى العلوم وفى الآداب ، وقد حاول فى مؤلفه الأخير ، وهو رواية ذات طابع فلسفى عميق ، تقديم مفهوم بسيكولوجى من وجهة نظر إسلامية للمحاكمة التى كان ضحيتها المسيح عليه السلام٠ ترجم هذه الرواية الى الفرنسية روجيه أرنالديز وقدم لها جان ثروجان ٠

② ـ « حلم وأكذوبة لورانس » من تأليف المؤرخ الأردنى : سليمان موسى الذى سبق أن ألف دراستين عن حسين ابن على والثورة العربية الكبرى وعن الأردن فى القرن العشرين ٠ وبكتابه هذا يدحض سليمان موسى جميع الأساطير التى حاكتها أقلام عديدة وفرضتها على بلاد الغرب فرضا إذ يقول : (أن الثورة الكبرى التى قامت فى الجزيرة العربية هى من صنع العرب وحدهم وبقيادة عربية محضة) ٠

أمـــومـــة

* * *

إلى التى طـال صبـرهـا

قصة ، بقلم : محمود طرشونة

ـ 1 ـ

أحب الصياد أن يأخذ الحيوان حيا : تلك ارادة زوجتـه ، وليس لارادتها مرد ٠ استطرفت الخنزير الوحشي اليافع وقد ضل عن غابته وغاب عن القطيع ووصـل الى الطريق وتوقف أمـام السيارة متعجبـا متحيرا تائهـا صاغرا ٠ تصورته فى حديقتها يحظى بعطف الصغار ويفخر به الكبار ٠ فللجيران قطط وكلاب متنوعة وطيور نادرة وسلاحف وأسماك ملونة ، وبعضهم يمتلك قردا صغيرا هدية من بعض السفارات الافريقيـة ، ومنهم من يفخر بتربيـة نعامة عملاقة ، فلم لا تربى بدورها خنزيرا وحشيا يكون زينة الدار ٠

ولم تطل دهشة الحيوان فقد نـزل السائق بحذر واقترب منه وأخـذه بين ذراعيه وأدخله السيارة ودفعها ٠٠٠

لكن للحديث بقية ٠

فام الحيوان الصغير قد شعرت بأن القطيع ينقصه فرد عزيز عليها ، فتخلفت عنه وأخذت تبحث عن ابنها بين الاشجار ، حتى وصلت الى الطريق فرأت عمل الصياد بصغيرها وهالها أن تنطلق السيارة به فلحقت بها ٠٠٠ فزاد السائق فى السرعة ٠٠٠ فـزادت ٠٠٠ واقتربت من السيارة ، فـزاد فى سرعتها ٠ فتوقفت الأم لحظة تجمع قواها ثم استأنفت العدو ٠٠٠ فكادت تلامس الحديد ، فرفع السائق السرعة الى أقصاها ٠٠٠ ولم تيأس الأم ، بـل اندفعت بكامل طاقتهـا وراء السيـارة تعدو وتعدو ٠ لكن الحديد يبتعد عنهـا ، لكن قواهـا تتضاعف ، لكن أعصابهـا تنهار والسيارة تزداد ابتعـادا عن ناظريهـا تحمل داخلها ابنها الصغير ٠ لكـن الضعف يـدب فى أوصالها والحديد يغيب بمن فيـــه ٠٠٠

عند ذلك عـرف اليأس طريقـه الى قلبها ، فتوقفت تتنفس بقوة عصبية ، والتفتت حولها فلم تر الحديد ولا الصياد ولا الصغير بل رأت الطريق أمامها خالياً والغابة من حولهـا ساكنة فلم تتحمل هـول الموقف ، فأخـذت تضرب برأسها أرض الطريق حتى انشق الرأس ٠٠ وانشقت الأرض ٠

— 2 —

حملت الأم بين أحضانها ولدا بهي الطلعة ، جميل المحيا ، يملأ الدنيا بهجة وصراخا ، تدفعه الى الحركة حياة تدب فى عروقه فيتعلق بصدر أمه ويتشبث به ، كأنه يطلب حنانها السليب ، ويتوسل اليهـا كى تبقى على حياته ٠ لكن الأم قد عزمت أمرا : لا بد من التخلص من هذا الوليد ، انه فى شرعها — بل فى شرع الناس — ضيف ثقيل متطفل دخيل ، جاء فى غير أوانه ، كان يجب ألا يولد اليوم ، بل كان يجب ألا يولد البتة ٠ لمـاذا جاء الى هـذه الدنيا وقد حملت به أمه فى ليلة حمراء هاجت فيها الذكرى والشهوة والمحبة والشباب والجمال والليل ، وسقطت فيها سدود أقامها الشرع والناس والأهل والخلان والسلطان ، واحتد فيها صراع بين المحبة والشريعة ، بين الوفاق والوثائق٠٠ فكان الطفـل ٠

كف الولد عن الصراخ فجأة : فكأنه استسلم للمصير الذى قدرته له أمه ورأى أن الصراخ لن ينقذه من هذه المغارة فى الجبل الشامخ الصلد ، ومن هذا البرد القاسى ، ومن هذا القلب الحائر : الطفل أم العار ، الطفل أم طلقة من تلك البندقية المعلقة فى غرفة أبيها ٠ الحيـاة ليست طفلا ٠ الحيـاة كرامة وصيت ومظهر عفيف وباطن خبيث ، وليلـة حمراء ، وبندقية بلا استعمال ، ووالد راض ، ووالد غائب ، وأم مطمئنة ، وطفل قتيل ، ورأس منشق ، وأرض منشقة وسلام دائم ٠

— 3 —

فى الدار دهليز مظلم توضع فيه القوارير الفارغة والأحذية القديمة والملابس البالية والمجلات والصحف والقصاع والحبال وكل ما قل استعماله ٠ وفى ركن منه نظم بيت الأرانب الذى انتشرت فيه بقايا الخضر وروائح الحيوان ٠

وكانت الأرنب الأم على موعد مع الوضع ٠ فقد أحست بقربه فتملكها الخوف والألم والفرح والحيرة والجهد : انهـا تعرف أن الذكـر سيلتهم الصغار حـال

ولادتها وأنها ستحرم ثمرة صبرها الطويل بسبب قسوة الأب وأثرته ، ففكرت فى حفر مغارة تحجب فيها الصغار الوليدة ، وشرعت فى البحث عن مكان لا يتفطن اليه الوالد « الحنون » • لكن المخاض أعجلها : فقد احتد الوجع واشتد الخوف فقادتها غريزتها الى مكان وبدأت تحفر المخبأ ••• فازداد الألم فأسرعت ، واستبدت بهـا الحيرة فأجهدت نفسها لانهـاء الحفر ، وكثرت الآلام فأسرعت واجتهدت وتحيرت وسمعت وقع خطوات تقترب من الدهليز ، فقويت خشيتها ، فزادت فى سرعة الحفر ، فاشتدت الأوجاع واتسع الحفير وبعدت الخطوات ، فاستسلمت للطبيعة الغالبـة ••• ثم شعرت براحـة لذيذة تسرى فى كامل جسمها ، وأحست بأنس الصغار من حولهـا فاكتملت بهجتها ، فضمتهم الى صدرها وشملتهم بعطفها ••• ساعة •

وهى على ذلك اذ عاد وقع الخطوات عجلى هذه المرة ، متعثرة متوحشة ، ثم ظهر فى شبيه الظلام طيف حيوان أبيض ثقيل عزيز ذليل يتأهب للقفز والفتك والافتراس • فاضطربت الأم وبرقت عيناها واشتد خفقان قلبها الصغير ، وتأهبت لدفع العدوان والقسوة والأثرة ، وانقاذ الصغار والأنس والحنان • ثم تبادل الزوجـان نظرات عدوانية قلقة خجلـة • وتقدم الأب من صغـاره ، فحالت الأم دون مبتغـاه وتعرضت لعنفه وقوتـه وقسوته فأصـر ، فدفعهـا فصدت وتدافعت ، ثم أصر فأخذ الصغير الأول فصدت فخذلت ، ثم التهبت فى صدرها نار الأمومة فحمت بقية الصغار لكن الوالد أتم التهام الاول فجاء دور الثانى ، فتسرب اليأس الى قلب الام ، فأخذت بين أسنانها آخر الارانب لتنجو به ، فلحق بهـا الزوج عند مدخل الدهليز وافتك الفريسة ••• عند ذلك خرجت الأم من الدهليز وأخذت تعدو فى صحن الدار •••

وفى ذلك اليوم رأى الاطفـال فى الأنهج أرنبا بيضـاء تسير بخطى وئيدة تريد القفار ، تلاحقها صور أرانب تفترس ورأس منشق ، وأرض منشقة ، وبندقية معلقة وطفل قتيل •

– 4 –

طالعتنا الصحف اليومية بنبإ غريب لعبت فيه الصدف والأمومة والقسوة أدوارا متكاملة : ليلة حمراء أثمرت تحفة جميلة وجب ايداعها بمكان ما فى انتظار ارضاء الشرع والناس والأهل والخلان والسلطان • وقد اتفق العاشقان الوالدان على الاطمئنان عليها فى بعض المؤسسات الاجتماعية • فأخذ الوالد

ابنته بين أحضانه وسار بها فى الصباح الباكر • لكنــه توقف برهة يتأمل المصير : لم كل هذا الازعاج ؟ فى امكانه أن يصنع ثانية فى ليلة حمراء أخرى يباركها الشرع والناس • فليدعها اذن فى حطام هذه السيارة الملقاة بعيدا عن الطريق • واطمأن عليها بين الحديد واطمأنت أمها عليها في دار الرضيع•••

وفى صباح ذلك اليوم سمع الصغار صياحا رقيقا متعبا فى السيارة التى تعودوا نهب بقاياها والعبث بها • فتنادوا وتأملوا واكتشفوا طفلة تتشبث بالحياة وتمد اليهم يدين صغيرتين ••• فعطفوا عليها وأخذوها برفق الى بعض ديارهم • فأنعشها الحليب والدفء والعطف ، وعادت اليها الحياة • ثم سلمت الى أولى الأمر ووصلت الى المكان الذى أرادته لها والدتها •••

ثم سوى الوضع فارضى الشرع والأهل فطلبت الأم ابنتها • فتحرج الوالد وتنصل وتحير وغاب عنه الجواب ، ثم ماطل وراوغ ووعد وأوعد ، والأم مصرة ملحة يدفعها الحنان والحنين الى الاصرار والالحاح ثم الى رفع أمرها الى العدالة ••• وبعد البحث والتنقيب بين الملفات تبين أن الطفلة التى أودعت فى يوم من أيام شهر ماى من السنة الماضية قد أسند اليها اسم « عـائدة » ••• الى أمهـــا •

— 5 —

« اشتعلت النار ، ذات يوم فى منزل ، وكانت فيه قطة ترضع صغارها • فلما رأت اللهيب يدنو من مكانها ، نهضت تنقذ أولادها من الهلاك • فأخذت أحدها بأسنانها ، وخرجت به خـلال الدخـان واللهيب ، الى مكـان أمين فى حديقة المنزل •

ثم عادت الى الثانى مسرعة وفعلت كما فعلت أول مرة ، مخاطرة بحياتها وسط النار المشتعلة •

ثم عادت لتنقذ الباقى ، فدخلت ولكنها ما خرجت اذ التهمتها النار التهاما ، فماتت تلك الام المسكينة شهيدة الحنان على أولادها » (1)

---

(1) عن كتاب القراءة واللغة العربية الجزء الثالث ص 57 — 58 •

عرفت بباريس رجلا كان زينة المجالس ، غاب عنا أشهرا فسألنا عنه الرفاق فتنهدوا وقالوا : « التهمته النــار » ٠

اندلع الحريق يوما فى بيته وقد علم أن ولديه يلعبان فى بعض غرفه فرأى اللهيب يقترب منهما وهاله الصياح والهلع وشبح الموت والعذاب ، فشق النار بكامل جسمه يريد إنقاذ الطفلين لكن اللهيب والموت سبقاه اليهما ٠٠٠

وفى ذلـك اليوم بكى رجـال المطافى لرؤية جثة محترقـة تحتضن جثتين مشتعلتين ٠

ومنذ ذلك اليوم صــارت الام تحدث كـل من عرف ابنيها وزوجها بحديث النار ، ثم صارت تحدث حتى من لم يعرفهم ، ثم صارت تحدث نفسهــا عنهم بصوت عال ٠٠٠ فقال الناس : « جنت » وقال آخرون « بل أصابتها لوثـة » وقال جيرانها : « انها فى كل صباح تعد الفطور لأربعة أشخاص وتتناول شيئا من الحليب ثم تشيع « زوجها » الى الباب بقبلة وتحيـة ثم تعود ثانية الى الباب لتوصى « طفليها » بالانتباه فى طريق المدرسـة والحذر من السيــارات ، ثم يسمعها الجيران فى منتصف النهار تعد الصحون والملاعق والشوكات وتلوم الصغيرين على تأخرهما وتعاقب الزوج على انغماسه فى العمل وتفضيله تناول فطور الغداء فى مكتبه وتجد له أعذارا ٠٠٠ »

وقال الجيران : « ان ذلك الامر تكرر أياما وأسابيع ، وفى كل يوم تزداد الحركة فى المنزل ٠ وقـال من زارها انه رآهـا فى غرفة الاطفال تخرج ثياب الصغيرين وتشمها وتقبل صورتهما ولا تبكى ٠ ثم لم يعـد الجيران يسمعون صوتا ولا حركة فى المنزل : فقد دخلت الزوجة الام فى هدوء غريب منذ أيام ٠ وعندما يزورونها يجدونها جالسة فى بعض الغرف ساكنة صامتة ، وقد لبست ثوب عرسها الأبيض الطويل ، فيحاولون تسليتها فلا تلتفت اليهم ٠

وفى بعض الليالى ضج الحي بأكمله : فقد رأوا الدخــان متصاعدا من ذلك المنزل الساكن ، فدعوا رجال المطافىء فامتلأت الانهج المجاورة بهم ٠٠٠

وماهى الا برهة حتى أخرجوا جثة امرأة محترقــة ٠

— 7 —

هل أتاك حديث العاقر التى رزقت ابنا بعد انتظار دام سنوات ، فضمته الى صدرها من شدة الفرحة والحنان والمحبة فقتلته ... ثم التحقت به ؟

— 8 —

« كان ذلك فى عشية يوم من أواخر سبتمبر الماضى بأحد أرياف القيروان ... عندما كان أهل العريس فى طريقهم الى دار العروسة محملين بالهدية التقليدية التى سيقدمونها اليها بمناسبة قرب موعد حفل الزفاف ، اعترض سبيلهم « فرج » عم العروسة وأمرهم بأن يحولوا اتجاه سيرهم فى غير الممر الذى يشق أرضه الخاصة...فسمع بذلك فى الحين أخوه « زروق » والد العروسة الذى كان يستعد لاستقبال زائريه فى غمرة زغردة نسوة الحي . وذهب اليه ليلومه على هذا التصرف غير اللائق الذى يمس بكرامة أصهاره الجدد ويلحق ضررا معنويا بسمعة عائلته . وكانت المشادة الكلامية بين الأخوين حامية ، فيها التهديد بالضرب ، وفيها الشتم والسب . وكادت هذه المشادة تأخذ أبعادا كبيرة وتؤدى الى اصطدام بدنى عنيف لولا تدخل بعض الحاضرين الذين توصلوا الى حسم الموقف .

وفى تلك الأثناء وصلت الى المكان « ربح » أم العروسة لتزيد الطين بلة . وكانت تحمل فى أحضانها طفلها الرضيع .. فدخلت مباشرة فى مشادة أخرى مع « فرج » ويبدو أن الانفعال كان استبد بها وأفقدها شيئا من وعيها . وهو ما دفعها الى أن تقذف من بين يديها ابنها الرضيع على بعد أمتار طويلة أمام أنظار الناس كأنها حسبته حجارة تريد أن تضرب بها « فرج » ولم يكفها ذلك ، بل أخذت ابنها من على الأرض ، وقذفت به ثانية فى وجه « فرج » (I) ...

— 9 —

يتعايش فى الضيعة الانس والبقر والطير والغنم تعايشا أمينا : كل ينمو ويتناسل بفضل الماء والنبت والهواء ، وكل يسعى للبقاء بما أوتي من غرائز

(I) جريدة « الصباح » بتاريخ 4 أكتوبر 1973 . ركن « حادثة فى المجتمع » لعبد الحميد القصيبى .

غالبة . وقد يأنس الاطفال بصغار الحيوان ، فيلاطفونها ويقدمون لها المأكل والمشرب . الا أن هذا الطفل اليافع قد ولد أصم أبكم ، وهو مع ذلك يشارك الصبيان أنسهم بالحيوان .

وقد اقترب هذا الصباح من عجل صغير مثله يلاطف جلده ويمسك بذيله . فانتبهت أم الطفل الى خطورة الموقف فأسرعت لابعاد ابنها عن الحيوان .

وفي هذه اللحظة انتبهت البقرة الأم الى وجود دخيلين قرب صغيرها ، فظنت به خطرا ، فأسرعت لانقاذه وهاجمت أم الصبي وصدمتها .

ومنذ ذلك اليوم لم يعد الانس والبقر والطير والغنم يتعايش تعايشا أمينا .

ـ 10 ـ

وهـام الوجد بسلطان الأمـومـة .

م . ط .

يــا ابنــى

شعر : محمد السنهورى

1 ـ يا ابنى ويا ابن وجودى الجبار
ما أنت إلا شعلة من نارى

2 ـ من فيض حسى ، من حرارة حدتى
من حر قلبى ، من مكين قرارى

3 ـ من وهج نفسى ، من أوار شبيبتى ،
من روح ما قذفت به أفكارى

4 ـ من صوب عقلى ، من غمامة خاطرى ،
من روضتى الغناء ، من إعصارى

5 ـ من صفو حوضى،من رحيق مجاجتى،
كالماء كالصهباء من بلار

6 ـ كأشد ما علقت بجوهره النهى ،
كالدرهم المضروب ، كالدينار

7 ـ ما أنت إلا فارد فى دوحتى ،
ما أنت إلا آيتى وشعارى

8 ـ أنت البقية من حياة أوائلى ،
يا للبقية من حياة نجارى !

9 ـ ما أنت إلا فى قرارة مهجتى
مترقرق بالحب والاكبار

10 ـ متنزل منى بمنزلة الهوى
فى القلب ، بل كالنور فى التيار

11 ـ كالأرى فى شهد القفير ، كمقلة   فى محجر ، كالطيب فى الأزهار
12 ـ كالبلبل الصداح يشدو سادرا   مترنحا فى غبطة ، كهزار
13 ـ كالريح تعبث فى الغصون ، كبارق   متألق فى الديمة المدرار
14 ـ كالصبح مفتر الطليعة إذ بدا   وكأنه من عسجد ونضار
15 ـ حتى إذا اعتنق الشعاع به انثنى   متضاحكا من رقة الأنوار
16 ـ كالنور ، بل كالشمس ، بل كالبدر ، بل   كالنجم ، بل كالكوكب السيار
17 ـ كالغيث فوق السهل ، والمعروف فى الملهوف ، والنعماء فى الأحرار
18 ـ كالصدق فى الأقوال ، بل كالجد فى الأعمال ، والاصرار فى الايثار
19 ـ كالعدل فى الأحكام ، بل كالشعر فى الأوهام ، والتسبيح فى الغفار
20 ـ سبحان خالقه الذى أبدى به ،   فى خلقه ، سرا من الأسرار
21 ـ ما زال يمرح فى الثمانى هازئا ،   فيما يسرك ، من ذوى الأعمار
22 ـ متوقد الاحساس إما منجل   عن حكمة أو آنف من عار
23 ـ مستهتر فى الكون كامل يومه   حتى يبيت طليح الاستهتار
24 ـ متفاعل مع ذى الحياة يحبها   وتحبه ، صنوين ، باستمرار
25 ـ متزعم أمر اللدات إذا التقوا   ليس الزعيم بكثرة الأنصار
26 ـ متحكم فيما يدور بلهوهم   لبقا يصرفهم بلا استعسار
27 ـ كالشبل مرموق الطفولة نابها   فى الغيل ، فى الآساد ، فى الأنمار
28 ـ رقت دواخل حسه متبصرا   فكأنه من جوهر الابصار
29 ـ كالصقر يحتل المكانة عاليا   من غير أظفار ولا منقار
30 ـ ما أنت إلا أنت يا ابن مشيئتى   دعنى من التشبيه والاكثار
31 ـ لولا مخافة أن يصاب بنافس   لقصصت عنه شيق الأخبار
32 ـ طهرت مطامح نفسه فرضيتها   والنفس ذات غرائب الأطوار

م• س•

كلمات منثورة

شعر : البشير المجدوب

من القيود ما يحفز النفس ويستثير كوامن الطاقة فيها فيكسبها منعة وقوة ...

لهى أشبه فى فعلها بالرياضة المحكمة تجمع القوى وتركزها تركيزا فاذا هى أشد ما تكون تحديا وصمودا للمصاعب والاهوال .

كذا الحرية إن لم تضبط هدمت نفسها .. كالنار يأكل بعضها بعضا حين لا تجد وقودا ثم تتلاشى وتموت .

* * *

إذا لم تجد فى الشعر تلك الموسيقى التى هى صوت القلب ، همسه ونجواه ... إذا لم تجد ذلك النغم الذى هو سر الانسان ولغزه فانما أنت تلوك لفظا أو تمضغ ماء .

* * *

الألم يرافقنا دوما لا ينى يمس قلوبنا وخزا ولذعا ؛ على أن بعض الطباع تجتلب السرور بأيسر جهد بل تولده توليدا وثمة طباع تتحس الهم والألم دأبا وتنجذب إليهما انجذابا .

* * *

أى ظمأ ... أى لهفة مسعورة فى صفحتى البيضاء !
لقد شربت من الربيع عبا فلا هى ارتوت ولا هو انقطع دره .

* * *

ما أوقح الحاضر فى هزئه بذكريات الماضى !

فكأنما لم يتغذ منها ولم يتحول بها عنها ولم يدر أنه بهزئه ذاك يقتطع فلذة من كيانه بل يهدم نفسه بنفسه سفها وحمقا .

* * *

إن لوحة أو أغنية أو قصيدة لتشدك الى أرضك أكثر من ألف

خطبة حماسية مكرورة المعانى تملأ رأسك بطنينها لحظات ثم تتبدد أدراج الرياح ٠

* * *

ما أشد خداع الشهوة وما أنفذ سحرها الى أعماق الكيان !

تزين متعة اللحظة وتضخمها حتى تملأ على المرء نفسه كأنه بازاء غنم لا يفنى وسعادة لا تعوض ٠

إنها فرصة الدهر وملك الأبد ٠ ثم لا تلبث أن تبرد وتبوخ فاذا هى شىء مألوف مبذول تافه سخيف ٠

* * *

ليلة لا كالليالى عمقا وصفاء وإن جللتها بقع من غيوم بيضاء ٠٠٠

أهو دوار أم عارض سكر ولا خمر ؟ أم الاستغراق فى هذا الخضم الهائل الوادع حتى كأن النجوم أصداف وهاجة فى غوره البعيد الدانى ؟

لقد خيل لى لحظة أنى أمشى على أم رأسى أو كأنى أسير مقلوبا والسماء من تحتى كالملكوت المسخر لبصرى يتيه فى أرجائه ويغوص، يعبث على رسله بما فيه من كنوز ٠٠٠

* * *

قلوبنا أشح بالدمع منها بالضحك والابتسام على أن الفكاهة الرفيعة ليست أقل عسرا وامتناعا من أدب المأساة إن لم تكن آشق وأعسر ٠

* * *

ليست السعادة فى الرضى تمام الرضى عن النفس لأن وعيك لرضاك يذهب السعادة ٠

لعل السعادة مجرد الشعور العميق بامكانها ٠

* * *

قد يستطيع القصاص المبدع أن يحملني الى أي بلد شاء فاذا أنا به ، سميعا بصيرا كأني من أبنائه أتحسس روحه ألتذ بالعيش فيه وأشقى إلا أن هناك أشياء يسيرة تفوتني حتما قد لا تتم الحياة إلا بها .. خاصية الطقس ... طبيعة الالوان ... نكهة الهواء ... موسيقى الأصوات ... مما لا يدرك إلا بالمعايشة والمعاناة .

* * *

أن تحس بأنك جهيض لا غير بعد جهد الايام والسنين ، صورة محرفة عن كيانك الحق وجوهرك الاصيل فلا أنت هو ولا أنت غريب عنه ...

كالنسبة الكاذبة يتعلل بها الدعي المغموز الاصل حينا ويلعنها أحيانا ...

لقد أخفقت أن تكون وليس لك إلا أن تتحامل على نفسك وتقنع رضيت أو لم ترض بقشر من وجود .

* * *

لسان الفنان وراء قلبه موصول به يستقي منه رأسا كأن لا حجاب بينهما ولا حاجز بل هما موصولان في الحقيقة بنبع كيانه وأعمق أعماقه . صنوان اتحدا رغم افتراقهما .

قد يفوق بعضهم الفنان تجارب ومادة حياة ولكن بين الفكر واللسان هوة لا يستطيع أن يتخطاها وهيهات أن يضفي على المعدن الخام الموفور لديه شكلا ورونقا وصفاء !

هذه القدرة النادرة على التسامي بالمادة وتحويلها ، هذه الكيمياء العجيبة هي من اختصاص الفنان دون غيره ممن قد يفوقونه ذوقا وخبرة وذكاء .

وإنك لتجد من الفنانين (ومن المثقفين أيضا) من لا يكاد يقول قولا أو يقوم بحركة ، مهما تكن بسيطة مألوفة ، أو يلزم هيئة ما إلا وهي موزونة موقعة عليها مسحة من الطرافة وأثر بارز من الشخصية .

هؤلاء عيشهم كله فن ؛ لكأنهم لم يقنعوا بنتاج الفكر فاذا هم قد نحتوا أنفسهم تماثيل حية تحفا رائعة تغدو وتروح بين الناس آية للنـاظرين ٠

* * *

من السخف أن نقول بالموضوعية فى الادب لأن الادب كالفن كله اتفاق نسبى محدود بين الذاتيات ٠

* * *

لم يقترب الانسان قط بعلمه ولم يبتعد بروحه من الله كاليوم !

* * *

هذا الضمير الذى هو قـوام الـذات وجوهرهـا ٠٠٠ كالحصـن يعصمنا من سخافة الفضوليين وخبث الاعداء ٠٠٠ إنا لنلعنه ونـود انعدامه حين يخفى عن الصديق ظنوننا السيئة فيه وأحكامنا الجائرة عليـه !

* * *

ما نفع بكاء الساعة مع خيانة العمر وظلم الأبد ؟!

أمواتنا فينا بين جنوبنا ينتظرون فى لهفة أن نبعثهم الى الوجود الحق ولكننا لا نعى ولا نسمع ٠٠٠

أن تضع مجرد غصن فى التراب فاذا الحياة تسرى وتخلـق من جـديد !٠

كذا الأموات أبدا يتوالدون فى نفوس الأحياء وينعدمون لساعتهم فى نفوس الأموات ٠

* * *

كيف تلعن الألم وهو فى كل مرة يحييك بعد موت ويبعثك أفضل مما كنت ؟!

ب٠ م٠

المستشفيات بتونس (*)

بقلم : الدكتور احمد بن ميلاد

3 ـ المستشفى الحفصي

البحث على هذا المستشفى له قصة أوردها للعبرة .

قرأت سنة 1944 فى عدد من « النهضة الادبية » وهى ملحق لجريدة « النهضة » وكانت تصدر فى حجم صغير مرة فى الاسبوع بتونس : « ان هذا المستشفى كان بنهج النفافته بالعاصمة وكان الطبيب الصقلي يطبب به » ، فذهبت الى المكان وسألت شيوخه هل سبق فى علمهم ان مرستانا وجد بحيهم ؟ فوجدتهم فى جهل تام من المسألة ، فظننت ان آثاره قد اندثرت كلها. على أن ما جاء فى جريدة « النهضة » جدير بالاهتمام لما لصاحب المقالة من خبرة فى التاريخ وان لم يذكر موارده .

وفى مجلة « المباحث » التى كانت تصدر بتونس قرأت مقالة سنة 1947 عنوانها : « البيمرستانات فى الاسلام » جاء فى آخرها ما يلى : « ان المستشفى الحفصى كان بالقرب من ضريح سيدى محرز (1) بالعاصمة وكان به أربعة آلاف بين مريض وناقه وهو عدد ضخم ليس على وجه الارض اليوم مستشفى يستوعب من المرضى ما استوعب . ويرجع تأسيسه الى القرن الثامن ذكره الزركشى » (2) فوجدت فى عدد القاطنين بالمستشفى مبالغة فادحة ولم تكن غلطة مطبعية حيث ان العدد كان مكتوبا بالحروف لا بالارقام . وأكده بقوله : « ليس على وجه الارض ... » . وراجعت كتاب الزركشى الذى استدل به صاحب المقالة فلم أجد ذكرا للمكان وللعدد المذكور .

(*) نشرت الحلقة الاولى بالفكر (ديسمبر 1972) ، والحلقة الثانية بعدد (أكتوبر 1973) .

(1) توجد بالقرب من ضريح سيدى محرز مقبرة أمراء الدولة الحفصية .

(2) الزركشى « تاريخ الدولتين » ص 33 / ط. تونس .

وفى السنة نفسها صدر كتاب باللغة الفرنسية عنوانه : « بلاد البربر الشرقية » جاء فيه : « أن أبا فارس أسس مرستانا مثل مرستانات الشرق لايواء المرضى والعجز من المسلمين ٠ واضاف : « أظن ان المستشفى الذى أسس فى القرن السابع عشر (يشير الى المستشفى الذى اقامه حمودة باشا المرادى هو تجديد مستشفى القرون الوسطى (أى الحفصى) » ٠

اتسعت شقة الخلاف وجاء الظن بعد اليقين ولم اظفر بنتيجة ٠ وفى يوم من الايام جاء الى قاعة المطالعة بالمكتبة الوطنية السيد عبد المجيد السبعى وهو رجل مولع بمطالعة التاريخ التونسى ونسخ كتبه بيده ، فسألته هل له علم بموضوع المستشفى الحفصى بالعاصمة وقصصت عليه ما وصل اليه البحث٠ ففكر قليلا وطلب المخطوط عدد 10642 وهو الكتاب الثانى من الحلل السندسية فى الاخبار التونسية للسراج (3) ووضع اصبعه على السطر الثانى من الورقة 29 ب ومد الى الكتاب فقرأت : « ان طبال باشا جمع الاسلحة تحت يده وكان الديوان (ديوان عسكر الترك) (4) آنذاك بالقصبة كما قدمنا بمكان هو اليوم دار البارود واما دار الديوان بزماننا هذا فانها كانت المرستان » ٠٠٠

يظهر ان التقهقر السياسى والانحطاط الاجتماعى والعجز المالى وبصيغة أخرى الحالة السياسية التى آلت اليها الدولة الحفصية فى آخر عهدها كانت

(3) السراج / ك 1 ، ج 4 ، ص 1075 ، طبع الكتاب الاول فى أربعة أجزاء بتحقيق محمد الحبيب الهيلة ولم يزل الكتاب الثانى مخطوطا ٠

(4) ديوان الترك هو-هيئة ضباط عساكر الترك وكلهم من الانكشارية ٠ وله النظر فى تسمية الباشا وهو حاكم مدينة تونس ٠ وكانت دار الباشا اى مقر الحكم والسكنى بنهج الباشا ومكانها المدرسة الثانوية للبنات حاليا٠ وبداخل بناية الديوان قبر سيدى بقطاش ، وبقطاش هذا سمى دايا فى معسكر باجة سنة 1098 هـ٠ 1686 م٠ خلفا عن أحمد شلبى وتوفى سنة 1099 ــ ذكره : روسو Rousseau : Annales de Tunisie, P. 69
والراجح ان التابوت الموجود هنالك لا يغطى قبرا ولا يحتوى على شىء وانما هو رمز للولى الصالح (؟) بقطاش دفين استنبول والذى يعتبره عساكر الانكشارية شيخا لهم ويتوسلون ويحلفون به ٠ وبقطاش الباشا المذكور دفن بمقبرة الانكشارية بالقصبة على حسب الظن وحلت مكان هذه المقبرة التكية المعروفة ٠

سببا فى غلق ابواب المرستان ، وانهاء مأموريته ، واصبح شاغرا خاليـا من المرضى والاطباء فاتخذه ديوان عساكر الترك مقرا لاجتماعاتهم ٠

ودار الديوان المشار اليها هى المحل الموجود اليوم بنهج الديوان رقـم 3 والذى اصبح فيما بعد المحكمة الشرعية وبقى ملتصقا بها اسم « الديـوان » وكان ذلك سنة 1273 هـ٠ / 1856 م٠ والمشير حمودة باشا الحسينى هو الذى أقر فيه المجلس الشرعي وترأس بنفسه أول جلسة للحكم (5) فبانت الحقيقة وارتفع الالتباس ٠ والعبرة من هـذه الحـادثة انـه ليس لاى كاتب عـذر فى استنباط التاريخ لما فى ذلك من استبلاه للقارىء واستنقاص للمتعقب الامر الذى يتيه به عمله ويضيع به وقته ٠

* * *

جاء ذكر المرستان الحفصى للمرة الاولى فى تاريخ الـدولتين للـزركشى ص 116 عند التعريف بأبى فارس عبد العزيز الذى تولى الملك من سنة 796 الى سنة 837 هـ٠ (1374 – 1433 م٠) ما يلى :

« ان من حسناته احداث المرستان بتونس للضعفاء والغرباء وذوى العاهات من المسلمين واوقف على ذلك اوقافا تقوم به » ولم يذكر المكان الذى انشىء فيه هذا المرستان وعدد غرفه ونظمه ٠ ونقل عن الزركشى ، الـوزير السـراج ، ومقديش ، وحسن حسنى عبد الوهاب ٠ وجاء فى اتحاف أهل الزمان لأحمد ابن أبى الضياف ج 1 ص 187 : « ان من مآثر أبى عمرو عثمان بن المنصور : السبالة شرقى القصبة ، ومنها سبالة قرب المارستان ـ ومعروف ان أبا عمرو عثمان بن أبى فارس عبد العزيز تولى أمر البلاد من سنة 839 الى سنـة 893 (1435 – 1488) (6) ٠ وغفل عن ذكر المرستان : الشمـاع وابن أبى دينـار

---

(5) ابن أبى الضياف ـ ج 4 ، ص 220 ٠

(6) ان السبالة شرقى القصبة التى اشار لها ابن أبى الضيـاف من انشـاء المستنصر بالله الثانى الذى تولى سنة (683 هـ٠) وليست من انشـاء أبى عمرو عثمان ابن المنصور: اشار اليها العبدرى فى رحلته عند ذهابه الى المشرق سنة 688 هـ٠ أو عند رجوعه سنة 691 هـ٠ لما ذكر مدينة تونس قائلا : « أما الساقية المجلوبة من ناحية زغوان فقد استأثر بهـا قصـر السلطان وجنانه الا رشحا يسيرا سرب الى ساقيـة جامـع الزيتـونة

ومقديش ولا نعلم شيئا عن ادارة هذ المستشفى وانظمته الفنية وموارده وعدد المرضى التى تؤمه إلا ما جاء فى كتاب أحمد عيسى (7) معجم الاطباء . يشير هذا المصدر ص 461 : « ان محمد الشريف الحسنى الزكراوى نزيل تونس وبها توفى سنة 474 هـ. قد جاوز الخمسين وكان طبيبا أديبا ولى المرستان بتونس واقرأ العقليات مع مشاركة فى اللغة » ونعلم من جهة اخرى ان القرن التاسع الهجرى ازدان بعدد من الاطباء العباقرة قد خلدت مصنفاتهم اسماءهم. اخص بالذكر :

* عبد السلام الصقلى . دفين الجلاز . توفى سنة 752 هـ. 1351 م.
* وابنه أحمد صاحب كتابين فى الطب وكتاب فى حفظ الصحة .
* ومحمد الصقلى وله تأليف قيم فى الطب : « المختصر الفارسى » .
* وأحمد الحميرى وله كتاب فى حفظ الصحة ليس له وزن .
* وأحمد بن الحشا وضع كتابا « قاموس » فى تفسير المفردات الطبية .

وكل هذه الكتب اهديت الى سلاطين الدولة الحفصية مثل المستنصر بالله وأبى فارس عبد العزيز وهى موجودة بالمكتبة الوطنية بتونس وبكثير من المكتبات الخاصة والاجنبية وسيأتى الحديث عنها .

فلا شك ولا ريب ان هؤلاء النفر من الاطباء قد باشروا بالمرستان الحفصى واكتسبوا بفضله الخبرة فى المداواة والتأليف .

الظاهر ان مرستان العزافين الذى اطنبنا القول عليه فى هذه المجلة آنفا (8) هو أيضا من منشئات الدولة الحفصية تشير بذلك عبارة الوزير السراج فى الحلل السندسية مخطوط 10642 ، ج 1 ، ص 51 — عند ذكر مآثر حمودة باشا المرادى وانشائه مرستان العزافين . جاء فى هذه الوثيقة ما يلى :

يتسرب منها فى أنابيب من رصاص وهى السبالة يسقى منها الغرباء ومن ليس له فى داره ماء ويكثر عليها الازدحام » العبدرى مخطوط تونس عدد 15952 ، وط. الرباط 1956 .

(7) معجم الاطباء ، ط. مصر 1942 .

(8) راجع « الفكر » ، عدد 1 ، سنة 19 (أكتوبر 1973) .

« وهو اليوم بيد أميرنا هذا كأنه كيف وضع بل اجمل من حالتــه الاولى بحيث دام بقاؤه أمر باحيائه وإصلاحه غاية واحياء أوقافه • أحيى الله قلبه يوم تموت القلوب » وهو الامر الذى ادخل الالتباس فى ذهن المؤرخ برانشفيك، اللهم الا اذا كان مرستان العزافين من مؤسسات الترك قبل ولاية حمودة باشا فيكون من حسنات يوسف داى الذى انشأ بتونس العاصمة جامعا ومدرسة للطلبة وحصونا واسواقا وجسورا واصلح الحنايا لجلب ماء زغوان •

بقيت لنا مسألتان :

الاولى : هل كان لهذا المرستان عمر طويل واصل فيه الغرض الذى اسس من اجله ؟

يظهر فيما تقدم أن أبوابه فتحت لمعالجة الفقراء مجانـا كمـا هـو شـأن المستشفيات فى عصرنا هذا وفى كل العصور مدة تفوق مائة وأربعين سنة اى من إمارة أبى فارس عبد العزيز الى السنوات الاخيرة للدولة الحفصية يوم تدهورت الاحوال وسادت الفوضى وانعدمت مداخيل الدولة •

المسألة الثانية : هل كان هذا المستشفى فريدا من نوعه أم أوجد غيره فى تلك المدة أو قبلها ؟

من الممكـن ان المستنصـر باللـه الاول الذى ترأس سنة 647 هـ أسس مرستانا • نحن نعلم ان الحضارة التونسية بلغت فى ايامه أوجا لم يسبق له مثيل فى تاريخ تونس وانه كان مولعا بالعلوم وقد خف الى دولته ودولة أبيه أبـى زكريـا من قبلـه علمـاء اجـلاء وأطبـاء عبـاقرة من الانـدلس • يذكر الغـبرينى فى كتابه عيون الـدراية : « ان المستنصـر ترأس مجلس اختبار الطبيب أبو القاسم محمد الاموى الحاذق الفاضل المعروف بابن اندراس من اهل مرسية ورد على بجاية سنة 660 هـ وبسط لقراءة الطب والعربية••• قرأت عليه أرجوزة ابن سينـا قراءة اتقان وجودة وكان يحضر نبهاء الاطبـاء وتجرى فى ذلك الابحاث ما يعجز الكبد عنه ، يحضر فيه الطبيب أبو بكر بن القلاس ••• ورحل الى حاضرة افريقيا بطلب من أميرها المستنصر بعد ان سمع به وعرف خبره فحضر مجلسه وسئل (ابن اندراس) فأجاب ووافق طريق الصواب وانتظم فى سلك اطبائه وكان من جملة جلسائه الخ ••• » • فلا غرابة ان امير افريقيا هذا قد اسس المرستان هو بنفسه • ومما يدعم هذا الافتراض وثيقة اخرى جاءت فى قـول الـزركشى ص 33 وهى : « وفى هذه

السنة اى 648 بنيت الساقية شرقى جامع الزيتونة » فان كانت هذه الساقية هى التى تصل الى السبالة قرب المرستان التى اشار اليها ابن أبى الضياف وكان الغرض منها انادة هذه المؤسسة فان مرستانا قد وجد قبل أبى فارس عبد العزيز بمائة وخمسين سنة تقريبا •

* * *

والخلاصة أنه كان لامراء الدولة الحفصية من اول عهدهم الى آخره اعتناء بالصحة العمومية فأسسوا لذلك مستشفيات لمعالجة الفقراء والغرباء وايواء العجز وتعليم الطب ، وظهر فى مدتهم اطباء لم تزل مؤلفاتهم تشهد بنبوغهم وعبقريتهم •

أ• ب• م•

توزيع الجوائز الادبية لموسم 72/71

أشرف السيد وزير الشؤون الثقافية فى منتصف الشهر الماضى بمقر وزارته على توزيع الجوائز الادبية لموسم 72/71 على المؤلفين والشعراء التونسيين ، وفقا لتوصيات لجان التحكيم التى نظرت فى الكتب المرشحة عن الموسم المذكور • وقد نشرنا قائمة بها فى عدد شهر ديسمبر الماضى •

وقد تولى السيد الوزير تسليم هذه الجوائز عقب كلمة نوه فيها بالجهود التى يبذلها الكتاب فى تونس ، وهى جهود لا يمكن للجوائز ـ مهما بلغت قيمتها ـ أن تكون المقابل الحقيقى لها •

كما انتظم حفل لطيف آخر فى الشهر الماضى وزعت خلاله جوائز بلدية تونس على عدد من الادباء الفائزين فى المسابقة السنوية لبلدية تونس العاصمة ، وكنا نشرنا قائمة بأسمائهم فى عددنا الماضى •

حضر الحفل الاستاذان محمود المسعدى وزير الثقافة ومحمد مزالى رئيس اتحاد الكتاب ووزير الصحة العمومية • وحضره نخبة من رجال الادب والفن •

وقد ألقى صديقنا الاستاذ عز الدين العباسى رئيس بلدية تونس كلمة لطيفة هنأ فيها الفائزين ، وأكد عزم بلدية تونس على مواصلة تشجيع رجال الادب والفن والثقافة •

تحية الى ابنى «فتحى»

بمناسبة أولى سنواته بالجامعة

شعر : حسين سفطة

أهنيك يا فلذة الكبد   بمجد رفيع الذرى سرمدى
بجامعة صرت ترتادها   كاشراقة النجم والفرقد
فيممتها بعد جهد النهى   هياما بفيض السنا الأسعد
يحالفك النجح فى المرتجى   ووفقت فى السير نحو الغد
تخيرت ما أنت أهل له   فنعم التأمل فى المقصد
فبوركت فى سعيك المجتبى   وبوركت من ماجد أمجد
تهيأ ـ فلا خبت فى خطوة ـ   لمستقبل زاهر أرغد
بنى عواطفنا آستشهدت   وقدت من الصخرِ والجلمد
رضينا ببعد على رغمنا   صبرنا على ظرفنا الأنكد
فهلا عطفت على شوقنا   فتبذل من جهدك الأجهد
لتسطع آفاقنا مرة   وتمسك راياتها باليد
وتهزج فى هزة الكبرياء   أغانى من شعرى الجيد
تنافس من كان يرنو لنا   يفاخر بالمجد والمحتد
وتبنى قصورا على دربنا   ورثتها سيدا عن سيد

ح. س.

الانسان الجديد

قصة بقلم : بوراوى عجينة

الالوان الضبابية تمشى على طريق ممتد كالابد والغبار يسبح فى سماء هادئة تربعت فيها سحابات عريضة بيضاء ، وخيوط فجرية تتسلل باحتشام من عالم مجهول لتضىء المدينة الصغيرة ٠

« اليوم ليس كسائر الايام ٠ »

مشى وهو يلتفت مذعورا ٠ خيل اليه أن ثعبانا مخيفا يجرى وراءه ، يريد أن يلتهمه ، فارتمى على الاسفلت الازرق وخبأ رأسه بين يديه منتظرا الموت ٠

رفع رأسه الى السماء فرأى آلة غريبة تشبه القطار تطير بسرعة البرق حاملة فى جوفها شبه آدميين ٠ « انى مهدد فى هذا المكان الغريب » ٠

نظر الى ثيابه البيضاء ، وضع يده المرتعشة على رأسه الاصلع ، تحسس ميلاد تجاعيد على جبهته ، تأمل بذهول بشرته البيضاء الناصعة ، انتفض من الرعب ، انزلق نظره على الطريق اللامتناهى ثم أخذ يجرى بسرعة صاروخية وخيل اليه أن رجليه تكادان لا تلامسان الاسفلت الازرق ٠ « انى أفضل أن أجرى الى آخر لحظة فى حياتى على أن تصيدنى أيادى الموت » ٠

يغشى لون أسود داكن حائطين عاليين بنيا يمينا وشمالا قد أحاطا بالقطعة الارضية الممتدة التى يجرى عليها الهارب ٠

رفع يده الملساء الى وجهه الغارق فى بحر من العرق وأزال بسبابته قطرات فوارة من الماء المالح ، أخذ يلهث كما يلهث الثور والسكين تتجول فوق رقبته٠ « ان الهروب من قبضة الموت أصعب من امتلاك الشمس والقمر معا » ٠ لم يعد يشعر بدقات قلبه الثائرة ولا بأنفاسه المتقطعة ولا برجليه وهما تلامسان الارض ٠ لم يعد يرى سوى ألوان ضبابية تحيط به من كل جانب ٠ لقد فقد أخيرا كل حس : تخاذلت حركاته ، انقطعت آماله ، ارتخى جسده وسقط فى النهاية على جانب من الطريق وأغلقت الدنيا أبوابها ٠

* ★ *

زُربيةُ مزركشةُ الالوان تمر أمام عيني · انى أسبح فى فضاء وردي اللون وأحلق فى سماء زرقتهـا خفيفة · الاشجار خضراء والارض بألوانها الزاهية تشبه لوحة فنان عبقرى لم يخلق بعد · والحياة تغزو الاوراق والزهور فتحركها بلطف فى حديقة منزلى الجميل ارتميت على أريكة وثيرة وفى يدى ملف كبير فيه صور العملة الالف ومعاولهم وفؤوسهم وفـوانيسهم « أطلب منكم جميعا الانضباط والعمل والاستقامة لا أستثنى واحدا منكم · ومن يظن أنه فى مزرعة بدون حارس فليرنى كتفيه » ·

تغمغم أصـوات قليلة « حاضر يـا سيدى المدير » وتصيح أصوات كثيرة بنغم واحد « سمعا وطاعة يا مولانا الهمـام ، المنجم منجمـك ونحن عبيدك ، والناس على دين ملوكهم ، كلامك هو قرآننا ، وأنت هو رسولنا ومن عصاك فقد خالف القوانين الالاهيـة » ·

أنظر الى وسط الحديقة فأرى زوجتى الشقراء تمرح مع ابنتى الصغيرة وهما تسبحان فى مسبح اخترت له شكل قيثارة كبيرة ، أتأمل تناسق بناء حجره الاخضر الجميل فتغمرنى ارتجاجات من الفرحة · « لقد حققت أحسن أمنية فى حياتى ، دخلت الجامعة فقيرا وخرجت منها على درب ما زال يصعد بى الى قمة النجاح · وها أنى أمتلك السعادة · »

أسمع همهمة فى الملف ويعلو ضجيج اختلطت فيه أصوات العملة المسعورة بمعاولهم وتبهرنى فوانيسهم « لقد ابيضت بشرتك بعد سواد وازددت بدانة وصحة بعد أن كنت طفلا فقيرا يناديه أصدقاؤه يا كدس عظام ، اثريت بعد أن كنت مفلسا لكنك وصلت بعد أن دست أجسادنا · زوجتك تستحم الآن فى مسبح ملأناه نحن بعرقنا · اللحم الذى تأكله هو لحمنا والحليب الذى تشربه صباحا هو دماؤنا · لكل ذلك أنت سعيد · كنّا فى الماضى بكما نتألم ونسكت ، أما اليوم فقد آن لنا الاوان أن نسترجع أتعابنـا ونطالب بعرقنـا ودمائنا · ألا أيها المستغلون كسروا قيودكم » ·

تمتلىء الحديقـة أوراقـا حمراء وتنقلب الصور جمـاجم مفزعـة وتتكسر الفوانيس · تهب ريـح صفراء فتتطايـر المعاول والفؤوس وتحيط بالأريـكة وتشتعل النيران وترقص الجماجم رقصة المـوت ·

* ★ *

أفاق مذعورا فتحسس رقبتـه ، انتفض كعصفور مبلـل فى ليلـة شتائية حديدية البرد ، راود رأسه غثيان ثم وقف كسكران مشمول وهو يحمد الاقدار أنه كان فى حلم ٠

استأنف المسير من جديد ٠

بعيدا ، رأى نفقا عظيما يشق جبلا كان يحلم فى طفولته أن يصل الى قمته دون جدوى ٠ « من يا ترى استطـاع أن يشنق هـذا العالم الكبير من التراب والصخور من استطاع أن يفتح هذا السر الخرافى ؟ »

على جانبى الجبل علقت ساعتان عملاقتان خيـل اليـه أنهمـا تشيران الى الساعة السابعة من أحد أيام سنة 2500

اقترب أكثر ، فتغيرت صورة الشاشتين لتحـل مكانهـا صورتـه نظر الى الاتجاهات كلهـا وهو يرتعش خوفـا من أن تلتهمه مصيبة مجهولة ، وأحس بالوحدة والضياع يقفان سدا جبارا أمامه ليمنعاه من التقدم ٠

ظهرت فى السماء طائرة خضراء اللون تحلق عاليـا ثم نزلـت على الارض الزرقاء بعد أن أخرجت عجلات عديدة وانقلبت بسرعة مذهلة الى سيارة فخمة تجرى نحوه ٠ « وجد الصائد ضالته وها أنى فى فخ حديدى يستحيل أن أفلت منه ٠٠٠ لن أقع بهذه السهولـة بين مخالب المـوت ٠ سأقـاوم ! سأقاوم ! سأقاوم ! » ٠

دخلت النفق الكبير وأنا أجرى كالسهم هدفى اللانهاية ، فسمعت ضجيجا ، وبهرنى الضوء وأصابنى ذهـول ٠ لقد شاهد الانسـان نفسه عاريـا من كل الاسلحة وقد قدم لوحوش العبث المفترسة ٠

* ★ *

فتحت عينى بصعوبة فأحسست أننى فى سيارة وثيرة تطير بسرعة مذهلة ، فى فمى قطعة من الحلـوى لذيذة ومنشطـة ، وعلى جبينى منديل أبيض تعبق رائحته بمسك فواح وبجانبى فتاة سمراء لم أر فى حياتى مثيلة لها فى الجمال ينبع من عينيها السوداوين أنهار من العطف والشباب والحياة ٠

ــ لا تنزعج منى ٠ فأنا مرافقتك المخلصة ٠ لا تسألنى عن اسمى وهويتى ٠ فأنا رقم من الارقام العديدة التى تعيش فوق كوكب صغير هو الارض ٠

حملقت فى قامتها الفارعة فى أصابعها اللطيفة وهى ممسكة بالمقود ، بهرت بنهدين يكادان يمزقان الصدرية بعينين كعين ماء صحراوية عذبة ظللهما نخيل باسق · تأملت فى كل جسمها الفاتن بشراهة وارتاح نظرى على شفتين فيهما نداءات جنسية مغرية لم أتمالك من الدهشة فسألتها :

ــ أين أنا ؟ ماذا حصل للعالم ؟ هل أنا مجنون ؟

ــ أنت فى أمان فلا تفزع ولا تجزع · لقد عرفت حياتك كلها من خلال دفتر حمله أبى معه الى المنزل وأبى طبيب اختصاصى فى احياء الاموات · وقرأت أيضا وصيتك التى طلبت فيها أن يحتفظ بجسدك بعد الموت · لقد جاء اليوم الذى ولدت فيه من جديد بعد أن فقدت الحياة بسكتة قلبية اثر اصطدام مع عملة المنجم ·

لقد خلفت وراءك فى المخبر أجساما عديدة أقدمها مومياء فرعون · أنت ثورة فى ميدان الطب الحديث · اليوم فقط عرف الاطباء طريقة احياء الخلايا الميته وذلك بحقن البدن دواء جديدا معقدا · ان الانسان قادر بهذا الاكتشاف العظيم أن يخلد فى الحياة ·

ــ لقد قضى الامر اذن وسترمينني بين مخالب الاطباء كالفأر الذى وقع فى مصيدة ·

ــ انك تجهل عنى الكثير · سنتحدث طويلا وستعرف أننى أقرب الناس اليك · قبل كل شىء يجب أن تعرف من أنا · أنا طالبة فى تاريخ البشرية وعلم النفس أعمل أحيانا ممرضة فى المستشفى الذى كنت فيه · كانت أمنيتى الوحيدة وما زالت الالتقاء بك والحديث معك · ذهب جل الناس فى عطلة يتنزهون فى كواكب بعيدة ولم يبق الا أنت وأنا وبعض رواد النوادى · ان البحيرة قريبة من هنا وأظن أن السباحة فى ماء دافىء لا تضر بصحتك ·

* ★ *

الشاطىء البعيد يقترب انه عالم ذهبى اللون كثيرا ما جذبنى اليه · كنت أبقى وأنا طفل أسبح منذ ظهور الشمس الى مغيبها ومياه البحر الصافية تدغدغنى وأمواجه الصغيرة تحملنى بين ذراعيها ·

قلت لحواء السمراء بحنان :

ــ ان عينيك أعمق من هذا البحر يغرق فيهما أمهر الصيادين ولا يميز من شدة الهيام الشاطىء من الافق · انى أرى الآن فى عينيك أجمل الكواكب تنير الكون وأحلى الجواهر تزين الربيع ·

وضعت اصبعى فوق شفتها السفلى مداعبا وخطفت منهـا قبلة سريعة ٠ ذعرت بعد سكوت طويل ثم أغرقت فى ضحكة ألـذ من الحياة فاحتضن بعضنا بعضا وغرقنا فى قبلات وردية ٠

ـ أتدرى يا أحسن أحفاد آدم أن سكـان اليوم نسوا اللغة الشعريـة التى حدثتنى بها منذ حين ٠ أصبح حديثهم أرقاما ورموزا واشـارات معتمدين فى ذلك على الاقتصاد اللغوى ٠

آه كم أحسد بنـات حـواء عصركم حين كن يسبحن عند منتصف الليل يرعاهن القمر ٠ كن يرتمين على الرمـال الباردة ويستمعن الى ألحـان شباب عصركم العذبة ٠ أما نحن فربنا الاكبر هو الآلة تأمر فنطيع ٠

سألتها باستغراب :

ـ لكن ما هو سر تنظيمكم الاجتماعى ؟

قالت بانكسار وعلى فمها الجميل شبه ابتسامة :

ـ اننا أمة واحدة نعيش كعائلة صغيرة منسجمة يحكمنا رجل واحد يقال له « نبى البشرية الاخير » جمـع بين الحكمـة القديمة والعلوم الحديثـة بين المذهب المادى والمذهب الروحى ويمتاز علينا كلنا بالذكاء الحاد ويحكم بالعدل والانصاف ٠ كتب كتبا عديدة ويخرج من عزلته بعد كل ستة أعوام فنسمع أقواله ونرى صورته فى تلك اللحظـة التى يجتمع كـل الناس لمشاهدته على الشاشات العموميـة ٠ انه يتصل عن طريق الهاتف المرئى بسكـان الارض حسب الصدفة فينصح ويوجه ويعين على حل المشاكل ٠

ـ ما هى اللغة التى يتكلم بها ؟

ـ إنها تجمع مادتها من كل اللغات القديمة والحديثة ٠

ـ ماذا تعملون ؟

ـ الآلات والعقول الالكترونية تسير حياتنا حسب نظام محكم دقيق وعملنا يدوم يوما واحدا نشتغل فيه بالمراقبة والاصلاح ٠

ـ ماذا تأكلون وكيف تتعاملون ؟

ـ طعامنا أقراص أو قوارير فيها كل الحيويات والمنشطات ٠

اننا نجهل طعم ما كنتم تأكلون من خضر وفواكه طرية وأنواع من المأكولات الشهية • كل ذلك مفقود تعوضه الاقراص والادوية التى نقتنيها بسهولة لاننا لا نعرف أيضا النقود البتة ولم نر وجها لما يسمى البوليس وما الحرب الا دليل مطلق على عدم كمال الانسانية •

ـ ماذا سأفعل فى هذا العالم الغريب ؟

ـ سنذهب معا الى البحر •

نزلت السيارة الطائرة على الطريق الاخضر واتجهت نحو البحر كسفينة تهدهدها مياه بحر هادىء • عندما وصلت أمام باب شاهق العلو انفتح على مصراعيه آليا ، لكن بابا داخليا رفض السماح لنا بالدخول الى نادى السباحة•

تصلبت عضلاتى وأحسست بدماغى يضطرب كأمواج مزمجرة وتمنيت أن أكسر كل الابواب ولعنت هذا العالم الجديد سرا •

ابتسمت الفتاة وأخذت الهاتف المرئى فظهرت صورة آلة حديدية تشبه الانسان • سمعت نقاشا وجدالا وأسئلة وأجوبة بلغة لم أفهم منها شيئا ثم رسمت الفتاة رقما فى آلة صغيرة ففتحت الابواب ثانية لقد دخل آدم وحواء جنة الطهارة بعد عناء شديد •

الخضرة تمتد أمامنا ، تغمر وجه الارض من كل جانب والازهار تكلل الطريق الطويل كزربية أتقن صنعها فنان قدير وزادها الحركة والحياة والجمال•

نظرت الشابة الى مرافقها بعين حالمة وقالت باستعطاف :

ـ انك قد تضطرب عندما أقول لك ان جميع رواد هذا النادى لا يلبسون عند الدخول الا كسوة آدم وحواء بدون أوراق التوت • لقد قرأت أنه كانت توجد فى عهدكم بعض الشواطىء والجزر يشبه نظامها نظام « نادى العراء »

رمت بالروب ـ الذى كانت تلبسه ـ خلف السيارة ومشت حافية لا يسترها عن نور الشمس شىء كدرة سحرية أخرجها الصائد من قعر البحر وأزال عنها صدفتها •

نزعت ثيابى البيضاء وظهرت أنا أيضا عاريا من كل غطاء فأخفيت تفاحة آدم بين كفى وأحسست كأنى ريشة خفيفة تسبح فى الفضاء •

ـ انك لم تسألني لماذا كان الطريق أخضر اللون ؟

كـانت الطريق في القديم سوداء تصعد منهـا ـ عندما تكون درجات الحرارة عالية ـ رائحة بذيئة ونتنة ، أما طرق اليوم فهي من مـادة جديدة ، قسط كبير منها يتكون من « البلاستيك » . ليس لها رائحة ، تصلح دليلا للسيارات الطائرة ليلا بما أنها تنير الظلمة وتعوض الملايين من الفوانيس الكهربائية .

واللون الاخضر كما تعلم علامة للخصب والمحبة . وطأت قدماي رمال البحر فسرت في بدني ارتعاشات لذيذة جعلتني أصفر وأترنم .

كل الناس حولنا عزاة : نساء وأطفال ورجال يتحدثون بلغة لم أفهمها . الشيوخ تحت مظلة والشباب تحت أخرى والاطفال يمرحون هنا وهناك .

مئات من الذين اتبعـوا فلسفة العراء . آلاف . ملايين التفوا حـول فرقة موسيقية أعضاؤهـا من الآلات البشرية رقصـوا كالمجانين فاختلطت أيديهم وأرجلهم واشتبكت لحى الرجال بشعور النساء ، وتصبب العرق أنهارا ، والتحم الجميع آخر الاغنية في رقصة جنسية مطلقة .

« ما أروع الانسان حين يتخلى عن كل قنـاع وينظر الى الآخريـن دون أن يقف بينه وبينهم أي حاجز اصطناعي »

نظرت الى مرافقتي متسائلا فتعانقت أيدينا في قبلة دافئة .

على حافة البحر تمدد شـاب وفتاة وعفرا وجهيهما وكـل بدنيهما بالرمال المبللة والتصقت الشفاه بهدوء . قالت مرافقتي معلقة على ذلك المشهد :

ـ بدون وعي سئما النظافة والاستقامة ، انهما يبحثان عن نوع جديد من الحياة يخالف القوانين الموجودة ، لمـاذا لا أكون فردا من جيـل جديد يرفض الاستقرار ويطمح الى التغيير في سلوكه ؟

قلت مهدئا لانفعالهـا :

ـ « أخطر الكائنات في هذا الكون هي التي تريد أن تغير كل شيء أو أن لا تغير شيئا آلبتة ! »

ـ أنا لست من دعـاة التقليد المطلق ولا الفوضى الكاملـة انـي أبحث عن اتجاه لم يسطره لي غيري ، النـاس كلهم في نفس الدرجـة من الذكـاء حين

ينظمون أعمالهم • أريـد مذهبـا نابعـا من ذاتى يجعلنى اختلف عن الآخرين ويشعرنى بأنى مقتنعة مع عالمى الباطنى ، الانطلاق فى المجتمعات كلها الفرد ثم الجماعة ، والتدرج يكون من الجزئى نحو الكلى لا العكس •

كـان الحاكم فى الماضى ملكـا أو دكتاتورا متجبرين لهما السلطـة الكاملة يعبثان بالرعية كمـا يريدان أما اليوم فلقد طغى الحـاكم على المحكـوم بعدله وانصافه قلت بتأثر وانفعال :

ـ الاندماج فى هذا العالم الجديد اشارة حمراء بالنسبة لى ولك • أظنك قد فهمت ما أعنى •

ـ العنصر الجوهرى فى اجتماع شخصين هو الاتفاق •

ـ والسكوت أيضا عن عيوب الطرف المقابل ، أحسن كلمة سمعتها : اقبل صديقك كما هو لا كما تريد أن يكون •

ـ سيكون اجتماعا سهلا ما دام الاطباء يظنون أنك مازلت ميتا •

ـ لكنى رأيت صورتى معلقة فوق شاشتين •

ـ انهم ينتظرون ميلادك يوما ما، لكن ليس بهذه السرعة • وقد اختاروا لك اسم « الانسان الجديد » •

وساد سكوت طويل كنت أثناءه أنظر الى عالم كله كنوز ولآلىء فى عينى رفيقة المستقبل •

ـ لا فائدة أن أذكر لـك أنى أحببتك منذ اللحظة الاولى التى رأيتك فيها ـ وأنا بين الارض والسماء ـ لقد وجدت الآن حلمى الممنوع ، أنت أملى الوحيد الذى يرقص النجـوم ، أنت النسمة التى تمر على القيثـارة فتشدو بأعـذب الالحان • أنت حاضرى ومستقبلى ، أنت الهواء الذى بدونه لن أستطيع العيش، أنت كل شىء ••• انى عاجز عن الوصف •• لان الحروف •• تخون صاحبها فى بعض الاوقات •

ـ أنا أيضا عاجزة عن الكلام ••• لكن أصارحك أننى ككل مواليد هـذا العالم ولدنا فى المخابر وعشنا فى المستشفيات تحت رعاية الدولة • فانا كما ترى لست ابنة طبيب ولا مهندس ••• أنا ابنة نبى البشرية لان سكان هذا العالم يرفضون تحمل مسؤولية انجاب الاطفال ورعايتهم •••

ـ ... التقى الغريبان اذن واتفقا . سأسميك « حواء الجديدة » لان فيك كل صفات المرأة التى يعجز اللسان عن ذكرها .

ـ وسأسميك « آدم الجديـد » وسنبنى تاريخـا جديدا نقتبس معالمـه من ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا .

* ★ *

حملت أمواج البحر الازرق جسمين عاريين ولفت الميـاه الصافيـة كنزين خالدين . وأشرقت الشمس بأشعة لم تجد بها من قبل لتنير وجهين باسمين .

اتجه آدم وحواء نحو الافق الذى عانقته السماء وما زالا يسبحان ويتحادثان عن بناء مستقبل جديد للبشرية فى جزيرة ستضمهما معا .

وكلما أحست حواء بالتعب ألصـق آدم شفتيه بشفتيهـا فى قبلة وردية الرائحة فجرية اللون .

ب . ع .

◆ **وزير الثقافة البلغارى فى زيارة الى تونس :**

قدم الى تونس فى أواسط الشهر الماضى السيد بافيل ماتاف وزير الثقافة البلغارى فى زيارة رسمية ردا على زيارة كان قام بها الى بلغاريا وزير الثقافة السابق السيد الشاذلى القليبى .

تناولت مباحثات الوزير البلغارى مع السيد محمود المسعدى وزير الشؤون الثقافية كل ما تم إنجازه فى مجال التبادل الثقافى ، وإمكانيات التعاون فى المستقبل بين البلدين فى مجالات ثقافية شتى ، من بينها البحث عن الآثار ، والتنشيط الثقافى ، والموسيقى ، والمكتبات ، وإمكانية تبادل زيارات الكتاب والفنانين ، وإقامة تعاون بين دور النشر فى كلا البلدين ، وإقامة معـارض للفنون التشكيلية .

هذا وقد أدى الوزير البلغارى زيارة الى مقر اتحـاد الكتـاب التـونسيين حيث السيد محمد مزالى رئيس الاتحاد وعدد من الاعضاء وأقاموا عـلى شرفـه حفل شاى دار خلاله الحديث عن الحركة الادبية فى كلا البلدين .

صندوق الليل ..

شعر : أبو وجدان الصادق شرف

من أنت هنا فى عمق الليل ؟
ذبح الكأس عروق الميل !.
سال الدم فى كل عروقى ..
من أين..وكيف دخلت إلى صندوقى؟
لا تسألنى كيف ! وأين ؟
فلم تبصر لى قدمين ؟
كلا ! فهما احتجبا عنى ..
فى « بوتيون » أطول منى !
لا تسألنى ما اسمى .. إنى ..
باسم الخمرة أبدأ فنى ..
فاشرب هذى .. زدها تلك ..
فلى الدنيا ولك الملك ..
عشاق الفتنة غاروا منك !
وأنا قد أحسد نفسى عنك !
فاشرب هذى .. زدها تلك ..
واشرب حتى تفقد معنى الشرك !

* * *

من نحن هنا فى عمق الليل ؟
تعب الشوق ومات الميل !!
ذهب الكل فكيف بقينا ؟
مات الصمت على شفتينا ..!
ردى الباب على علاتى ..
فلقد تفل الليل علينا ..
تعب العمر على لذاتى ..
كبى الكأس ففى عضلاتى ...
وحش الخمرة ينهش ذاتى !

جمد النوم على أهدابى ..
سل النزوة من أعصابى .!
ولعنت الدفء على الأعتاب ..
ذاك الباب فأين ثيابى ؟؟

* * *

تفلتنى الليلة فى الليل الممتد ..
ومضيت على النهج المنسد ..
وأنا كزقاق فى حى الأوهام !
خطواتى يدفعها للخلف القدام ..
فى رأسى الخمرة كالثعبان ..
حبستنى فى قفص الدوران !
من يمخر أقدامى ؟؟..
يلتذ بايلامى ؟
من يبصق فى عينى ؟؟
ويوسوس فى أذنى ؟
من يغرس فى رأسى خنجر أتعابى ؟!
ويدق على بابى ؟!
أيدق وما فى دارى غير ثيابى ؟!
وبعثت إلى البحث عن المفتاح يدى..
وكأن يدى تمتد إلى الأبد !
ورمانى بالمفتاح الجيب !.
وبلغت المفتاح .. فأين الثقب ؟؟
قربت الثقب من المفتاح ..
وتطل من الثقب الأشباح ..
دورت أنا المفتاح فدورنى ..
كسرته .. كسرنى ..

حبرت الباب وحبرني ..	دورته ما دار ...
من أين الحبر؟ تقيأ مفتاحي الحبرا..!	فاذا الليل نهار !
أم هذى الحمر .. لعنت الحمرا ..!؟	وإذا بصماتي فوق جدار !
أم مسخ المفتاح إلى قلم منهار .؟؟	وإذا أنا كالكوخ المنهار !
قلمي في ثقب الباب كأنه مسمار!..	قدام الباب أمام الدار !

ص. ش.

(وهران ـ الجزائر)

◆ **المجلة التاريخية المغربية :**

هذا عنوان المجلة التاريخية الجديدة التي صدر عددها الاول بتونس في شهر جانفي 1974 ويسهر على تحريرها هيئة من أساتذة التاريخ بتونس والجزائر وتركيا ويديرها الاستاذ عبد الجليل التميمي الذي عرفناه بجده وحماسه وإخلاصه للبحث وانقطاعه الى التأليف والتحقيق .

وسرنا أن تصدر هذه المجلة باللغات العربية والفرنسية والانقليزية مما يوسع انتشارها ويعمم فائدتها وييسر لها خدمة التاريخ والبحث العلمي ويساعد على التلاقح بين المؤرخين العرب ، مغربا ومشرقا وغيرهم من المؤرخين في العالم .

ونحن إذ نرحب بها ونرجو لها الدوام والاشعاع ، نهيب بالمسؤولين عن التربية والثقافة وبرجال التعليم العالي والثانوي وبالسادة متفقدي التعليم الثانوي والابتدائي أن يأخذوا جميعا بيد هذا المشروع الثقافي ويمكنوه من أداء رسالته والتعريف بتاريخ وطننا الحقيقي وتخليصه من ترهات أشباه المؤرخين وعملاء الاستعمار الثقافي .

لوحات قصصية :

المهدي والدم الاخضر

بقلم : عمر الخليفي

تقول العرافة فى مدينة الدم الأخضر ، من قلب المأساة يولد المهدى ، يخرج من كل بيت ، يحطم كل باب ،، يزحف على واقع الأحياء الساقط ،،، تقول العرافة من ليل المخدوعين يولد الوعى فى صورة المهدى مع الفجر الطالع من وراء التلال على مسار الشفق الوردى وتظل عيونهم ـ وهى تحكى ـ جدباء كالموت ، مشنوقة على عتبات الزمن الكالح ، كالألم العجوز ، وتظل أخاديد وجوههم تحكى حكايا الزمن الظالم ، وطريق المجهول تتمطى فى شرايين انتظارهم حتى الموت،الدم الأخضر يغازل الدم الأحمر فيهم نخب الغد المستور ، أحلامهم ضبابية ترتفع وتتكسر على رؤوسهم كأمواج المد فخارا ضائعا فى الأعماق ،، البسطاء والمهزومون يقرعون أبواب الجنة ،، البسطاء والمهزومون يقرعون أبواب الرفض ولكن !!! رؤى جديدة على حساب الزمن القادم تتمركز فى محيطات دماغية لأكت الانتظار أغنية شعبية كاريكاتورية معادة فى إذاعة ما للمرة العشرين ٠٠

مقاطع من أغان عن العدل فى إذاعة ملكية ٠

* * *

يسبقك ظلك الى باب المدينة ، تقف وفى عينيك ألف صورة وراء الاسوار،، قبل أن تدخل يذبحون الشوق فى عينيك ويبيعونك ويبتاعونك وأنت الواقف على العتبة ، أمام الواقع تكبر المشاهد فى عينيك ؛ امرأة تغازل ٠٠٠ وأخرى يغتصبونها ليلا فى عقر دارها وثالثة معلقة على جدار مبنى قديم و ،، تفقأ عيناك ،، تفقأ عيناك ،، تفقأ عيناك ٠٠

فى ساحة المدينة إحدى عشرة جثة لرجال صلوا بلا أحذية ونهدا امرأة معلقان على رمحين ٠٠ فى الشوارع رجال يتقيأون قوانين ملكية وآخرون

مسجونون يموتون عرقا بعد عرق لأنهم لم يصلوا لعرش الجلالة !! لأنهم لم يصلوا ، لعرش الجلالة !! لأنهم لم يصلوا لعرش الجلالة !!

فاصل موسيقى

* * *

ترتفع أصوات الزبانية ، ترتفع أصوات زبانية العرش ، تخرج ضخمة متعفنة كالظلم ، تمزق أجواء المدينة ، تخترق الجدران وتنفذ الى الآذان ثقيلة كجدب الأيام ، عارية كندف الثلج ، تبصقها الآذان لحينها لأن «لكل كلمة أذنا» و « لكل ساقطة لاقطة » وآذان الرفض لا تقبل بيانات العرش :

النساء يصلين بلا فساتين ،، الكادحون لا يسيرون على الأرجل وسط المدينة ،، ترفيع فى ساعات عمل المرتزقين وتخفيض فى أثمان الساعة ،، محاكمة شيخ متفت وثان يطلب عملا ما ...

يختلط لحن العذاب بسمفونية الانتظار .

* * *

ارتفع الكرسى !!! ارتفع الكرسى على جباه المخدوعين ، تمطط اللفظ وتكسلت الشعارات ، انتصبت كالزمن الآكل على الحاضر ، حكم على أعصاب الرفض ربا ومعبودا ، كبر وتكبر ، مشى لحنا يصدر الاعدام بدون تهمة ، يضرب الأعماق ويضاجع تماثيل بيضاء من صنع الزمن العادل

يسقط الانتظار وتسقط الأعذبة

* * *

ويكبر المهدى فى الأعماق ، يتضخم ، يتحرق شوقا الى الأرض المروية بالدم ،، أينع الدم الأخضر لما نبت المهدى على أسوار مدينة الذل رماحا رفضية، غنى الرفض للميعاد وآرتفعت شعارات الادانة وأصوات تأمره بالعودة من حيث هو آت وآهتزت الفأس سلاح المهزومين ووقعت على رأس الملك ، تهشم الرأس على أرصفة المدينة وسال الدم أحمر ،، سال الدم أحمر قانيا .

ع. خ.

ملاحظات حول مراحل الشعر العربية وصلتها بتاريخه ونقده وموسيقاه

بقلم : فتحي اوزير

• **مراحل الشعر العربي**

من السهل على دارس الشعر العربي التمييز بين ثلاث مراحل كبرى في هذا الشعر ، **لكل مرحلة منها طابعها وحدودها وخصائصها الغالبة** ، وإن أختلطت أحيانا وتداخلت ، وهي : **مرحلة الانشاد** (1) ، **ومرحلة الغناء** (2) ، **ومرحلة الكتابة** (3) .

فـ « مولدات الانشاد » (4) هي إنتاج البيئة البدوية ، والظروف الحماسية ، والأمزجة الحادة .

(1) اهتم بها بصفة خاصة فؤاد أفرام البستاني في الحلقة الثانية من سلسلة الروائع حيث حدد المفهوم الذي يحمله مصطلح الانشاد ، وأبرز بعض خصائصه .

(2) من اللذين اهتموا بها شوقي ضيف في مختلف أعماله ، مثل « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » و « الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية » .

(3) أنظر بعض خصائصها في الروائع ، ص 10 ، 30 ، حلقة 2 ،ط 7 ، 1969 . و « من حديث الشعر والنثر » لطه حسين ، ص 88 ، ط 10 ، 1969 . وجزء كبير من خصائص « التصنع » و « التصنيع » التي درسها شوقي ضيف في كتاب « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » يدخل في نطاق هذه المرحلة .

(4) الروائع ، ص 24 .

بينما يشهد « الأسلوب الغنائى » (5) فى الشعر العربى برقة الطبـاع ، وتقدم الحضارة ٠

أما الكتابة فتعكس ثقافة البيئة والشاعر ، و « تحرر الانسان من سلطان الذاكرة ، وتعتقه من الذاكرة المنشدة » (6) ٠

فى مرحلة الانشاد ، يسترعى آنتباهنا الشاعر المنشد ، وراويته ٠
وفى مرحلة الغناء يبرز الشاعر الغنائى ، والمغنى ٠
وفى مرحلة الكتابة يظهر الشاعر المؤلف وشارحه ٠

وفى كل مرحلة من هذه المراحل ، نجد خصائص معينة فى الجمهور المستهلك للشعر ، كما نلمح علاقة محددة بين هذا الجمهور المستهلك والشاعر المنتج ٠ إلى غير ذلك من الفروق المميزة ٠٠٠

•• هاته المراحل وتاريخ الشعر العربى

من الجلى إذا أن اتباع هذا التصنيف يمكن أن يمثل منهجا صالحا من مناهج دراسة تاريخ الشعر العربى ، يقع فيه خاصة الربط الوثيق بين هذا الشعر وبين بيئته ٠

وإذا لم توجد حتى الآن دراسة شاملة لتاريخ الشعـر العـربى حسب هذا المنهج ، فان الاستفادة من فكرة المراحل هذه بارزة للعيان فى عدة دراسات هامة ، **وذلك لأن لكل مرحلة مثلها الفنية الخاصة بها ، المميزة** لها عن غيرها ، كما أن لكل مرحلة وسائلها المبلغة لتلك المثل ٠

فهذا مثلا فؤاد أفرام البستانى قد آستفاد فى دراسته لأسلـوب الشعـر الجاهلى من استخراج الصفة الانشادية للآثار الجاهلية (7) ٠

---

(5) إبراهيم العريض : « الشعر والفنون الجميلة » ، ص 109 ، دار المعارف بمصر ، 1952 ٠

(6) البشير بن سلامة : « اللغة العـربية ومشاكـل الكتـابة » ، ص 41 ، الدار التونسية للنشر ، 1971 ٠

(7) الروائع ، ص 20 ـ 25 ٠

وهذا شوقي ضيف يصور « المثل الأعلى » (8) عند الشعراء الغنائيين في حجاز القرن الأول ·

بينما تتبع إبراهيم العريض أثر الأسلوب الغنائي في مختلف أجيال الشعر العربي (9) ·

كما تمس فكرة المراحل بعض قضايا تاريخ الأدب ، ومنها قضية نشأة الشعر العربي · فقد ذهب بعض الدارسين الى أن أصله إنشاد (10) ثم أخذ يتحول تدريجيا نحو الغناء بعدما كان الشاعر يمشي مع الخطيب يدا بيد » (11) ، بينما يرى آخرون أن الشعر العربي نشأ نشأة غنائية ، شأنه في ذلك شأن كل أشعار الأمم (12) ·

وفي الدراسة التي قدم بها بدر الديب لديوان صلاح عبد الصبور : « الناس في بلادي » أفكار هامة توضح مفهوم المراحل الشعرية (وبدر الديب يعبر عنها « بالمصطلح الشعري ») وصلته بفهم تاريخ الشعر العربي ونقده ·

◆◆◆ هاته المراحل وتاريخ النقد الأدبي عند العرب

وكما ترتبط هاته المراحل بدراسة تاريخ الشعر العربي ، فانها ترتبط كذلك بدراسة تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، **لأن لكل مرحلة مقاييسها ومبادئها** من ناحية ، ولأن هاته المراحل قد تتداخل وتتفاعل من ناحية أخرى فيكون لكل ذلك انعكاسه على حياة النقد الأدبي ·

ولعل تداخل المرحلتين الغنائية والانشادية في بعض الفترات هو الذي أورث تداخلا في المصطلحات كاستعمال لفظتي « غنى » و « أنشد » في نفس المعنى أحيانا ·

---

(8) « الشعر والغناء » ، ص 309 ، ط 2 ، 1967 ·
(9) « الشعر والفنون الجميلة » ، ص 109 ·
(10) وتلك هي نظرية البستاني ·
(11) العريض ، ص 107 و 130 ، وإن كان يرى أن الشعر عند بقية الأمم « نشأ في حضانة الغناء والرقص منذ قديم الزمان » ، ص 22 ·
(12) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه » ، ص 38 ، ط 7 ، 1969 ·
البهبيتي : « تاريخ الشعر العربي » ، ص 90 ، ط 4 ، دار الفكر ·

ولكن لفظة « أنشد » تغلبت فى النهاية ، وكأنما كان ذلك رمزا الى غلبة المرحلة الانشادية على بقية المراحل ٠

فقد اعتبر النقاد الرسميون قيم المرحلة الانشادية مثلا عليا للشعر العربى فى كل العصور ، وعدوا نتاجها نموذجا يجب احتذاؤه ٠ ولعله من الطريف فى هذا الباب الاشارة الى « اعتذار » حازم القرطاجنى عن خصائص الشعر الغنائى من « حنان ورقة » و « شجو واكتئاب » لأن « ما قصد به من الشعر هذا المقصد ، **فمن شأنه أن يصفح فيه عن اعتبار القوة والفخامة** » (13) ٠

وقد كان هذا النقد الأدبى المنحاز الى المرحلة الانشادية سببا (14) فى بروز ظاهرة سلبية فى الشعر العربى يمكن تسميتها **بظاهرة الانشاد المزيف** ، وذلك بداية من القرن الثانى تقريبا ٠

فالبيئة لم تعد بيئة إنشاد ، ولا الظروف ظروفه ، إنما هى الحضارة قد هذبت الأذواق ، والترف قد رقق الحواشى ، والغناء قد تفاعل مع الشعر فضعفت فيه خصائص ، وقويت فيه أخرى ؛ فى هذه البيئة الحضرية ، المترفة ، المليئة بمظاهر الفن والجمال ، كان بعض الشعراء ـ خضوعا لأذواق الخاصة كالخلفاء والنقاد ، وتملقا لتلك الأذواق ـ يحاولون التمسك بخصائص الانشاد القديم ، متوسلين الى ذلك بشتى السبل (15) ٠

ولما كان من المستحيل إحياء جوهر الانشاد فى بيئة غير بيئته ، وظروف غير ظروفه ، فقد لجأ أولئك الخلفاء والنقاد والشعراء الى حيل تنكرية تبدو لنا اليوم مضحكة للحفاظ على مظاهره ٠ ورد فى البيان والتبيين أن العمانى الراجز « دخل على الرشيد لينشده شعرا وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج٠

---

(13) « منهاج البلغاء » ، ص 205 ، تقديم وتحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة ، تونس ، 1966 ٠

(14) من جملة أسباب ٠ آنظر مثلا العامل النفسى

A. Laroui : l'idéologie arabe contemporaine p. 88 Paris 1970.

(15) آنظر مثل الكميت « البدوى المزيف » كما سماه يوسف خليف : « حياة الشعر فى الكوفة الى نهاية القرن الثانى للهجرة » ، ص 687 ، القاهرة ، 1968 ٠

فقال : إياك أن تنشدنى إلا وعليك عمامة عظيمة الكور ، وخفان دمالقان ...
فبكر عليه من الغد **وقد تزيى بزى الأعراب ، فأنشده** » (16) .

وهكذا أصبحت هناك تقاليد تنكرية للمحافظة على مظهر زائف ، وتقرر عند أهل الأدب أن « من تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيا » (17) .

هذا مثال أوردناه لندل على أن دراسة المراحل الشعرية تمكننا من مقياس نفرز به النقد الملائم لكل مرحلة من النقد المنحرف ، كما نتبين بواسطته أذواق النقاد ومواقفهم ، وما أثارته كل مرحلة من نشاط نقدى سواء كان مؤيدا لها أو معارضا ، وأثر كل ذلك فى حياة الشعر العربى .

كما أن اتباع هذا المنهج يحمينا من مغبة الوقوع فى الخلط الذى وقع فيه النقاد القدماء والمتمثل فى تطبيق المقاييس الخاصة بمرحلة ما على شعر مرحلة أخرى (18) .

.... هاته المراحل وموسيقى الشعر العربى

إن دراسة موسيقى الشعر لمن أصعب الأمور ، فقد اختلف الدارسون فى تعريف هاته الموسيقى ، وفى كيفية دراستها (19) ، كما اختلفوا فى تحديد مقومات اكتمالها (20) . ولعل الاعتناء بفكرة المراحل فى الشعر العربى يمكننا

---

(16) البيان ، ص 95 ، الكتاب الثانى من الجزء الاول ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط 3 ، 1968 .

(17) البيان ، ص 94 ، ونفس المبدإ فى محاضرات الراغب الاصفهانى .

(18) نجد فى روائع البستانى تحذيرا منهجيا من هذا النوع ، ص 10 ، 19 ، 30 .

(19) آنظر عرضا نقديا لمختلف الاتجاهات فى دراسة موسيقى الشعر العربى فى الفصل الاول من كتاب شكرى محمد عياد : موسيقى الشعر العربى ، ط 1 ، 1968 .

(20) آنظر مثلا أحمد أحمد بدوى : « أسس النقد الأدبى عند العرب » ، ص 334 ، ط 2 ، 1960 .

من إلقاء بعض الأضواء على هذه القضية . فقد تبين لنا أن لكل مرحلة مثلها الفنية ، ولا شك أن موسيقى الشعر من بين تلك المثل بل ربما كانت أهم تلك المثل ، وهى لذلك ستتغير من مرحلة الى مرحلة لتلائم طابع تلك المرحلة وخصائصها الغالبة . إذ ما الذى يميز هذه المراحل بعضها عن بعض إذا كان أهم شيء فى الشعر وهو موسيقاه يبقى هو هو ولا يتغير ؟ لذلك فنحن لا نشك مثلا فى أن موسيقى الانشاد تختلف عن موسيقى الشعر الغنائى ، كما لا نشك فى أن مرحلة الانشاد المزيف لن تتوصل الى تحقيق موسيقى شعرية موفقة لأن القضية مبنية من الأساس على لبس وتزييف . وهكذا نلمح أهمية العلاقة التى تربط بين دراسة المراحل الشعرية ودراسة موسيقى الشعر . وهذه العلاقة تبرز بوضوح فى تفضيل بعض المراحل لبعض الأوزان أو الأنماط دون غيرها (21) ، كما تبرز فى اختلاف المثل الأعلى للكمال الموسيقى لنفس الوزن من مرحلة الى أخرى خضوعا لتأثير البيئة بصفة خاصة (22) . ولا شك أن ربط موسيقى الشعر العربى بفكرة المراحل يعنى أولا وبالذات ربطها بالبيئة . وقد فطن الشاعر العربى القديم الحطيئة لحتمية مثل هذا الربط ، فقال يصف إنشاده : « حسبك بى إذا وضعت رجلا على رجل ، ثم عويت فى آثار القوافى كما يعوى الفصيل فى آثار الابل » (23) . فهو قد ربط بين إنشاده وبين مظهر من مظاهر بيئته البدوية (عواء الفصيل ...) له علاقة باحساسه وبموسيقى نفسه ، فاذا إنشاده فى نظره يشبه العواء (كما يعوى) بل هو والعواء سواء (عويت فى آثار القوافى) ! وقد ذهب هذا

إبراهيم أنيس : « موسيقى الشعر » ، ص 43 ، ط 3 ، 1965 .
عبد الله الطيب المجذوب : « المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها » ، ج 1 ، ص 136 ، ط 1 ، 1955 .
البشير بن سلامة : « اللغة العربية » ، ص 176 .

(21) من ذلك تفضيل المرحلة الغنائية للأوزان الخفيفة والمجزوءة عموما وتغليبها المقطوعة أو المسمط على القصيدة الموحدة القافية التى استقرت مثلا أعلى للنظم فى المرحلة الانشادية .

(22) « المرشد » ، ج 1 ، ص 278 = للشعراء فى الأداء بواسطة الكامل مذهبان : الفخامة والجزالة ... والرقة واللطف .

(23) « رسالة الغفران » ، ص 575 ، تحقيق : بنت الشاطىء ، ط 5 ، دار المعارف بمصر .

المذهب فى ربط موسيقى الشعر ببيئته البشير المجدوب ، وعبر عنه بجلاء (24) .

ولا شك أن تعريف إبراهيم أنيس لموسيقى الشعر العربى (25) قد احتوى اعترافا ضمنيا بأثر البيئة فى الموسيقى الشعرية ، بجعله نغمة الانشاد (26) أحد مقومين يكونان موسيقى الشعر العربى ؛ وذلك لأن نغمة الانشاد هذه تختلف من بيئة الى أخرى ، وعصر الى آخر ،كما تختلف من لهجة الى أخرى ، وربما من شاعر الى آخر (وقد رأينا الحطيئة يعوى بانشاده) ، وبذلك تختلف موسيقى الوزن الشعرى الواحد **ويكون لها أكثر من مثل أعلى بحسب نوعية الانشاد المعتبر غاية ومرادا** ، ويتبين تبعا لذلك أن موسيقى أوزان الشعر العربى أمر نسبى وليست أمرا مطلقا ومعطى منذ البداية فى هيئة نموذج أكمل وصورة مثلى كما يذهب الى ذلك البشير بن سلامة (27) ففى هذه النقاط يتركز اعتراضى على نظريته (28) ، وإن كنت أيضا لا أوافقه فى فهمه لقول الخليل عندما سئل عن أشعر بيت عند العرب : « البيت الذى يكون أوله دليلا على قافيته » فقد اعتبر ابن سلامة هذا القول مؤيدا لما ذهب اليه من أن كل وزن فى الشعر العربى لا يمكن أن تستكمل فيه العدة الفنية إلا مرة واحدة مع قافية واحدة (29) . بينما يبدو لى أنه من الأنسب وضع هذا القول فى إطاره من الذوق العربى للشعر زمن الخليل ، ومن النقد الأدبى فى ذلك العصر .

---

(24) « بنور » ، ص 184 ، الدار التونسية للنشر ، 1968 .
وأنظر عن صلة تطور الأوزان الشعرية « بتغير الأفكار وفقا لتغير البيئة والحضارة » شكرى محمد عياد = موسيقى الشعر العربى ، ص 17 .
وكذلك أثر « الثقافة » فى تجديد المهجريين فى موسيقى الشعر :
محمد مندور = فى الميزان الجديد ، ص 54 ... ط 1 ، 1944 .

(25) « موسيقى الشعر » ، ص 151 .

(26) مفهوم أنيس للانشاد هو الالقاء المنغم للشعر ؛ فهو اذن غير المفهوم الذى استعمله به البستانى واتخذه سمة لمرحلة الانشاد .

(27) « اللغة العربية » ، ص 177 .

(28) « اللغة العربية » ، ص 166 و 177 ، والفكر ، نوفمبر 1973 ، ص 91 .

(29) « اللغة العربية » ، ص 166 .

فهو يدخل فى رأيى ضمن ذلك النوع البديعى الذى يسميه النقاد القدماء « **توشيحا** » تارة و « **رد الأعجاز على الصدور** » تارة أخرى ، ويوردون له عدة أمثلة كقول الشاعر :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داع (ى) الوغى بسريع

وتحدث ابن رشيق عن ذلك فى باب « **التصدير** » قائلا : « هو أن يرد أعجاز الكلام على صدوره ، فيدل بعضه على بعض ، **ويسهل استخراج قوافى الشعر اذا كان كذلك** ، وتقتضيها الصنعة ، **ويكسب البيت الذى يكون فيه أبهة ، ويكسوه رونقا** وديباجة ، ويزيده مائية وطلاوة » (30) .

على أن القول الفصل فى قصد الخليل لا يملكه سوى الله والخليل ؟.

ف. أ.

(30) « العمدة » أول الجزء الثانى .

مرثاة على ضفة بياش

شعر : احمد المختار الهادى

أعد عشاؤك فادخل بنى ...
لانك كنت تعانى من الجوع والبرد طيلة يوم شقى
أنا بانتظارك فادخل حبيبى
ولا ... لا تدعنى لشكى الرهيب
فوجهك ينظر لى من خلال خيوط المطر
على البعد يبسم لى يا حبيبى
تعال إلينا فعينا أبيك حفر
وأعين إخوتك الجاثمين على العتبه
ترفرف أهدابها مثل عصفورة متعبه
ولا من خبر ...؟
فهل ستعود إلينا بنى ..؟
فهذا عشاؤك ما زال كسكسه يفوح بلحم طرى .

* * *

يقول لنا أهل حارتنا إنهم غادروا المدرسه
أو أنهم قد تبقوا هناك
فتغمرنا لوعة
ولكنها مونسه
ونهرع للشارع المقفر
كمثل المجانين نصرخ بالعاصف الممطر
وتبتل فى السيل أثوابنا
وتمطر بالدمع أهدابنا
وكل الأزقة كانت برك
فأى يقين تبقى لدينا
وكل الحقائق تأكلها نار حيرتنا بين ظن وشك

* * *

وبياش (I) هذا الذى سار فى جبروت وفى خيلاء
وفتح أشداقه كالتماسيح يبتلع الأبرياء
وأرغى وأزبد كى يأكل الضعفاء
ويحملهم سيله دون وعى
مع الصخر والرمل مثل الغثاء
بكل جنون وفى عنجهيه
وفى صلف أحمر وغباء
وبياش فى لحظة من جنون
يوزع من جبروته كل الذى قد أراد
من الويل فى قسوة وعناد
وأكبادنا بين أمواجه الصفر تعصر
وأهدابنا شدها الدمع حتى تحجر
وأجفاننا تتخدر
ومأساتنا ۰۰۰ آه مأساتنا على عرض بياش تنمو وتكبر
وأحزاننا ۰۰۰ آه أبناؤنا وخيرة طفلاتنا ۰۰۰ وأرواحنا تتكسر
على صخر بياش هذا الذى جن كيما يعرفنا اليوم معنى الجنون
وكيف تكون مفاجأة الخطف عند المنون
وكنا أمناه طول الزمان
وشدنا على شاطئيه سدود الأمان
ولكنه خان وخان هذا الزمن
تجبر واجتاحنا
وأقبر أفراحنا
لمن سوف نشكو جنون الزمان ۰۰؟
وجنة بياشقولوا لمن ۰۰؟
ولا أحد فى يديهالسلاح
ولكننا قد دفعنا الثمن

* * *

تقول هنا الأم عند غياب الضياء بحضن الشفق
وقد مات فى فمها اللفظ جف به الريق غاب الألق
وقد ورم الدمع باقى الحدق
أعد عشاؤك يا فارس الحلم فادخل وزرنا بدون توان

وحلق أيا بلبلى الحلو أنت وغن
وزقزق بأذنى
أتسأل عنى
وأنت الذى قدت مركبة الفيضان

* * *

ويخرس صوت ... ويخرس صوت
وتنطفىء الآن أنوار بيت
وحين يعود الجميع إلى الدور كى يسألوا أين صحن العشاء
سيصرخ صوت يقول :
عشاؤكم كان طينا وماء
عشاؤكم كان طينا وماء
ترددها الأرض بعد السماء ...

ا. م. ه.
(المتلـوى)

(1) بيـاش: وادى يشق مدينة قفصة ينبع من جهة تبسه بالجزائر ويصب بشط الغرسه وهو الذى حمل فى الفيضانات الاخيـرة بعض التلاميذ والتلميذات أثناء عمليات العبور رغم مساعدات الجيش والحرس الذين ذهب بعضهم ضحايا هم الآخرون أثناء عمليات العبور هذه .

عندما ينتحر الموت

قصة ، بقلم : رضا الزعزاع

(مهداة إلى م· ع· غ·)

كل ما فيها يعبر عن شيء ·· وعن أشياء ··· وعن اللاشيء ، وكل ما فيها خليط من انسان يتنفس لكى يعيش ، ولا يدرى أهو يعيش فعلا أم هو فى وجوه يتراءى كالسراب · ان ضحكت فلأن شيئا فى داخلها قد تفاعل ، فانفتح فمها نتيجة ذلك التفاعل ، لكنها لا تعرف كيف تبكى ··· انها تجهل البكاء ، وتجهل داعى البكاء ، ودواعى الضحك ··· حتى ان انفتح فمها ، وانطلقت أساريرها فذلك شيء أملاه الطبع ذاته ·· هذا الطبع الذى لا يعرف التوازن ··· صورة الابهام فى محياها ، وصورة اللاإبهام فى محياها ··· وصور عديدة متناقضة تبدو وتتلاشى لكى تظهر من جديد فى كل حركة من حركاتها ، وفى كل نفس من أنفاسها ··· تبدو لك حينا وردة فيحاء قد تفتحت بعد طول انغلاق أو كأن الجمال ومشتقاته قد صبغها فبدت كالعروس ··· بعد ليلة العرس لا قبله ، أو كأنها لوحة داعبتها يد فنان عبقرى ، فكانت ربة الجمال والأنوثة ··· وربة الحب·

··· تلك هى ··· هى ··· وتلك هى اللاهى فى صورة أخرى مباينة شكلا وقالبا ··· ويتراءى لك وجهها فى انكماش متضارب ، وصرخات تأتيك صامتة ، حزينة ، تصفعك فى كل نفس من أنفاسها ··· وحنجرة تلفظ الكلمات قسرا ··· وان عبرت فهى تصيح بين ألحان الحزن والغناء لتقول : انى لا شيء أمامكم ··· إنكم تروننى وأنا مغمضة عينى لكى لا أراكم ··· انتم مصدر تعاستى ··· وأنا سعيدة لأنى لا أراكم !···

هذه صورة فتاة عرفتها ناكرا فضل الظرف الذى جعلنى أعرفها وأعرف من خلالها ان الانسان يمكن ان ينتحر دون ان يموت ، ويمكن ان يسمع الثناء وعباراته وهو لا يسمع سوى أن فى الوجود خليطا من أناس يتكلمون أى شيء ويعبرون عن كل شيء ، دون الاعتراف بأن الموت يمكن ان ينتحر وان يضرب الحائط برأسه ، وان تتحرك السكين فى اتجاه موقع الموت ، لتقتله ، فيموت الموت !

وتعلمت كيف يموت الانسان ويضمحل وجوده ويدفن في تراب من الكلمات ومن اللافهم ... عرفت أن هذه أصعب ميتة ، وأشد وقعا على وتر الروح وعلى وتر الفناء ...

... وكان لقائي بها في « همبورغ » وقد لعنت هذا اللقاء ، وهمبورغ ، والعالم كله ، لأنني أردت ان لا أتعلم أشياء تفوق قدرتي النفسية ، ومع هذا ، ورغم كل شيء ، وجدت نفسي اتحدث معها في حي « سان باولي » وكأني في عالم بعيد كل البعد عن عالم الأحياء ... أسمع ... ولا أصدق ان الموت نفسه يمكن أن ينتحر ...

وقالت : عرفته شابا ، ولا يزال ـ كما هو عالق في ذهني ـ صورة تملأ نفسي ، لا تزال كلماته تعاد في ذهني في كل ثانية من حياتي ...

وقالت : عرفته وأنا يائسة انتظر بصبر ساعة مغادرتي هذا الكون ... لأن مرضي عضال لا شفاء منه ... وصارحته من أول لحظة بكل شيء ، ولا مجال لكي أقول انى أحببته ، لأن الحب في نظري عقار مسكن للأحياء ، يستعملونه متى أرادوا مزيدا من الشجاعة لمواصلة السير في درب الحياة الطويل ... صارحته ان ساعاتي قليلة وإنه بامكاني ان أغادره وأنا أتحدث ...

وضحك طويلا بجنون ، وقال لي : انت ستموتين ، وانا سانتحر عقب موتك ، أو ربما قبل ...

لم أصدق .. ولكن ذلك الذي كان أمامي يجعلك تصدق كل حرف ينطلق من فمه ... وضحكت بدوري ، ولا أدري لأي شيء ضحكت ، وان كنت في ما بعد قد ندمت على ضحكتي ، لأنني بها قد سببت كارثة لنفسي ، لا لأحد غيري ...

مرت الأيام ، وفي كل صباح أقول ودون يأس ان هذا اليوم هو آخر أيامي ، ومع هذا كنت سعيدة وأكثر ، وسبب سعادتي انني عرفته .. دون ان أحبه وان كان كل شيء فيه يحب ، أو ربما رفقا بنفسي أرغمت نفسي ان لا أحبه ، أو قد أكون قد اختزنت حبي لأنعم به في آخرتي ...

أما هو فأحبني بجنون ... كان حبه أهوج ، عاصفا . لم يكن يعطف علي ، بالعكس كان يعاملني بقساوة وكأنه يتعجل موتي ... وكنت صاغرة

أمام هذا القضاء الذى لا راد لـه ·· وكأنـى لا أملـك ذرة من التحكـم فى مصيرى · وأذكر أنه جاءنى يوما وكل ما فيه يضحك ، وقال لى : لقد انتابنى شعور وكأنك ستموتين اليوم ، واليوم بالذات ··· وضحكت لانى أنا نفسى أريد أن أنفرد بحبى فى العالم الآخر وأسعدتنى كلماته ···

ان الايام تمر جريا وانا ما زلت بعد حية أنتظر دورى بقلق متزايد ، وكل من حولى يعلم ان أيامى معدودة وان المرض يستفحل فى داخلى باطراد ، ومع هذا انقلبت الثوانى الى ساعات ··· وانقلب كل شىء فى الى سعادة ··· انى سعيدة به وكفى ·· وان كنت لا أحبه ، أو على الأصح أمهـل نفسى على الانسياق فى مثل هذه العاطفة التى لا تجدى ·· ولو الى حين · وكانت لقاءاتنا فى بادىء الأمر متلاحقة الى ان اصبحت لقاء واحدا متصلا ·· ومدنى بأحسن هدية ·· هدية انسان أحب فى كل شىء حتى أخطائى التى قللت منها طمعا فى الخلود وارضاء لخالقى ، كى يأخذنى الى جواره راضية مرضية ·

إن أطبائى يعلمون الى أى حد يمكن لى أن أعيش ، ويعلمون أيضا أن لا دواء لدائى · وعاد يوما فقبلنى أكثر من العادة ، وشعرت أنه مريض وان بـدا لى أجمل وأبهى مما كان عليه ، ودعانى الى فراشنا باكرا ، وكانت آخـر ليلـة أقضيها معه ، لقد تركنى وذهب ··· مات ·· انتحر دون ان ينتحر ··· أما أنا فالى الآن لم أمت ، والى الآن يقول أطبائى انى سأموت · يا للبلاهـة ·· إنى مت دون أن يعلم أى كان انى مت··· مت بعدما افقدته وفقدت وجوده··· وحبه الكبير الأهوج الذى طالما مدنى بالصبر ، وأعطانى القـدرة على مزيـد التمسك بالحياة · وها أنا الآن أعيش فى انتظار الفجر الذى سيلحقنى به ·· وإذ ذاك سأحبه أكثر ··· وأكثر ···

ر · ز ·

اشعـــــار...

شعر : عبد السلام لصيلع

تصغر على خارطة صدرى قطرا ،
تكبر وطنا ·
حملتها على ساعدى صارية
تنمو زمنا ·
فى غابات الذكرى والمستقبل
تحملنى منفى
وترحل ·
أحببتها منفى ·
آه ! يمشى نحوى الموت · أحملها ··
تحملنى كفنا ·
ــ كيف ؟
هى السيف ،
وأنا الرقبه ··
أنا السيف ،
وهى الرقبه ··
كلانا القاتل والمقتول ·
عيناها لغمان زمنيان
صدرها مطار « اللد »
أنا « أوكاموتو »
أنا الغضب الممتد
نحن الاثنان
فدائى واحد ·
أحيانا ، يتساقط لحمى وبرا ،
تنضب نوافير الدم فى عينى ،
يموت الهوا فى رئتى ،
يسكت النبض ، يتقاطر راجعا ،
لم يبق لى إلا ···
ــ مـاذا ؟
·
إلا أن أرحل
لأجدد لحمى ··
أحببتها مطرا ·
يا هذا الحزن مهلا !
مازلت أبحث عن أرقام أبواب آطرقها،
تنتظر فى المستقبل
واللا مستقبل ،
خلفتها ونسيت رقما
هى الرقم لم تتمم قائمتى ،
همومى الكل أنستنى ··
آه ! لو تذكرت ، لقالت : خذنى ··
ندمت ولم أندم ،
ندمت ·· لأنها أحبتنى ··
تستحم فى بحر أساى عمرا ··
تغسل ضفائرها
فى وديان ضياعى فقرا ··
متجردة اشتهيتها قهرا ··
تتكرر كوابيسها ،
تتمطط فى أحراش رأسى نارا
بردت عليها لسانى ،
أضحت قرية الدم جبالا أسكنها ،
تفصل بين الصحو والغيبوبه ··
بين الظلمة والصوره
والشمس المصلوبه ··
أيها الحلم الغارق
فى موت الأسطوره
وبدء الرحله ،
من منا يعلم كم طول الرحله ؟·

ع· ل·

مشموم الفل

تأليف : **البشير خريـف**
عرض : **جعفـر ماجـــد**

البشير خريف علم من اعلام القصة بتونس ولعلـه أن يكـون القصــاص التونسى الذى تبايعه كل النزعات وتزكيه كل الاقلام ومن منا لا يعرف كاتب « برق الليل » أو الدقلة فى عراجينها ولئن فرض البشير خريف نفسه قصاصا بنوعية انتاجه فان خصوبته جعلت منه مددا دائما للسوق الادبية وها هو اليوم ينشر مجموعة قصصيـة جديدة سماهـا « مشموم الفـل » وصادف ظهورها فصل الصيف فكان هبوبها على الحياة الادبية هبة عطر كتلك التى تهتز لها نفوس المصطافين على شواطئنا الجميلة · نشرت هذه المجموعة الدار التونسية للنشر فى 143 صفحة من الحجم الصغير الذى ظهرت فيـه مجموعـات نـادى القصة كلها وقدمها الاستاذ محمد مزالى بكلمة رقيقة ذكر فيها بالظروف التى حفت بنشر القصص الاولى للبشير خريـف وشهد فيها بمـا عاناه كاتبنا من خصومه منذ عشر سنوات فقط واستخلص من حياته الادبية دروسا للشباب منها ضرورة الثقة بالنفس وعدم الانبهار بالتيـارات المستوردة وقال الاستاذ مزالى بعد ذلك الا ترى أن قضية المذهب ثانوية فى آخر الامر وان الاهم هو قبل كل شىء ظهور القصاص الاصيل والاديب الكبير وهما اللذان يفرضان الاتجاه المتميز ويوحيان للنقاد والدارسين بالمذهب الجديد ؟

والآن فلنتشمم شذى مشموم البشير خريف ولنبدأ بـ « خليفة الاقرع » التى شاهدها بعضنا على شاشة السينما ·

كان خليفة شخصية شعبية غريبة يوزع رسائل الغرام ويسعى بين المحبين ويداعب النساء فى خلوتهن لان الرجال يأنسون اليه ولا يخافونه وكـان مع ذلك واسطة بين أهل الحي وعم بوبكر الدقاز المغربى يحمل اليه « الفـدوة » ويجمع له بعر المعز كي يبيعه بخورا وكـان خليفة الاقـرع سعيدا بهذه الحياة وفجأة أصبح الناس يمنعونه من دخول بيوتهم ومعاشرة نسائهم فساءت حاله واستنجد بعم بوبكر الا ان الدقاز كان انتبه الى مراوغات خليفة الذى أصبح

هو أيضا يبيع الحروز وينقص له من المصروف ويحتفظ لنفسه أحيانا ببعض الفدوات وتجرأ خليفة فأخذ يهدد الدقاز بأنه يعلم كل شيء وهنا تظهر سمة من السمات القصصية للبشير خريف وهى حلاوة الاستطراد بعد حلاوة التشويق فنعلم من هذه الخصومة كيف كان خليفة يتعرف على الصبايا فى سطوح الحي وكيف انقلبت علاقته بالارملة صلوحة من مشاكسة الى مغازلة ونرى فى كل ذلك صورا من الحياة الشعبية بكبتها وبساطتها واسرارها وأخطارها ويبين لنا خبث الدقاز فى ابتزاز المال وسلب الاعراض ٠

الا ان البشير خريف لا ينتصب واعظا مصلحا فيتركنا نتلذذ بالاطلاع على هذه الحياة العجيبة الغريبة ونستكشف فى نفس الوقت قذارة العادات الفاسدة ونستنكرها ونعود الى خليفة المسكين فنعلم ان مأساته تتمثل فى برئه فقد أخذ شعره ينبت ولم يجد بدا من الالتجاء الى دقاز طمعا فى معجزاته فيقول له عم بوبكر « واش عندى من قدرة ليك ؟ » الا ان خليفة يعبر عن رغبته فى جملة تجمع بين الفكاهة والحزن وتصور على كل حال هذه الشخصية المحببة عم بوبكر برأس اللى يعز عليك ٠٠ اعمل لى حتى دمالتين والا ثلاثة ٠٠

القصة الثانية من مجموعة (مشموم الفل) لا يختلف نفسها كثيرا وان كان الاطار اطارا آخر **رحلة الصيف** عنوان لقصة بطلها أو أحد ابطالها مسعود بن خليفة الاعتر نراه ممسكا بيديه بروبطة مليئة بالادباش والعباد ويعانى من حركة المرور مشقة كبيرة ونراه فى لوحة ثانية مرحبا يتباهى على خالة الزائر بسكناه فى العاصمة فهو فى مدينة تتوفر بها كل المرافق الحليب تجده فى كل وقت الماء فى الشيشمة الشرطة تقوم بالحراسة وتمنع اللصوص من السرقة وتتكلم الزوجة متباهية أيضا فتقول : مسعود غدوه هز خالك لدروج منبرى دروج تمشي وحدها ٠ الا أن هذه العائلة لم تكن فى حقيقة الامر ترى الحياة بألوانها الزاهية فقد اختصر البشير خريف وصفها بقوله كوخ وثلاثة صغار وأمهم وكلب وبطالة كثيرا ما تطغى على العمل ٠ لقد ابرم ذات يوم صفقة هامة كلفه أحد الحرفاء بحمل أثاث من براكة متداعية فطلب أخشابها مقابل أجره وعن له أن يقضى بها الصيف مع عائلته على شاطىء البحر والاعتر هذا يأخذ من طبع الكاتب المرح شيئا كثيرا الا أن هذه الفكاهة تخفى وراءها مرارة دفينة كتفاؤل أبى ماضى الذى يأبى بعض النقاد الا يروا فيه الا تشاؤما مكبوتا عاد الاعتر ذات ليلة وأطفاله على الطوى وأخذ يسأل أفراد عائلته عما يشتهون من الاكل وكلما طلبت منه أكلة الا وغناها ونقر البندير ٠ طلب ابن له حلوة حلقوم فأعطاه اياها غناء (يا والله حلقوم معطر بالبندق واللوز مكعبر) وطلبت زوجته دواء لابنتها فغنى الفرح للبنية وللمرأة دجاجة مصلية وهكذا يتفجر الكبت ويغطى نقر

البندير هذه الاصوات المتصافحة حتى تهل عليهم بشرى فى تلك الليلة الباردة فيناموبن على أمل جديد ونرى البشير خريف يتدخل فى هذه القصة أكثر مما فعل فى خليفة الاقرع فيعلق ويقارن بعض الحالات باوضاع تاريخية أو يدعمها بحكم واشعار وهو لم يتخل فى ذلك عن لغته اى عن العامية فى الحوار والاشتقاق من العامية على الاوزان العربية وكثيرا ما يصيب البشير خريف عصفورين بحجر واحد حين تكون الكلمة العامية تحمل نفس المعنى فى اللغة الفصحى الا انها مهجورة ٠

أما **محفظة السمار** فهى مستوحاة من أيام الكفاح الوطنى ويبدو أن البشير خريف نفسه أحد أبطال هذه الاقصوصة ٠ انها تربط بين جيلين جيل الذين افتكوا الاستقلال بأظافرهم كما يقول الكاتب وجيل الذين ينعمون به فمن بحيّرة السيجومى فى ذكرى الشهداء نرى امرأة تحت السير الى حيث يقيم البناؤون نصبا تذكاريا وبيديها محفظة عزيزة عليها لا تريد أن تتركها بين أيد غبية وقد تقدمت بها السن ثم يعود بنا البشير خريف الى حوادث 9 أفريل بل قبلها بكثير أيام كانت هذه المرأة بنية وتعرفت على صبى زائر ثم افترقا ثم جمعتهما الايام وظروف الكفاح ويمعن خريف فى تشخيص ذكرياته عن تلك الايام المجيدة فنرى هذا الشاب ضمن المجموعات الشعبية التى سارت وراء القائد غير مبالية بالسجن والموت نراه يوزع المناشير ويقتلع الصفائح الفرنسية من الشوارع ويسقط فى آخر الامر شهيدا فى حوادث 9 افريل وكانت حبيبته قد خرجت تبحث عنه فوجدت جثته قرب الميضاة وسلمها الوقاد محفظة خرج بها هذا الشاب فى المظاهرة فضمتها الى صدرها ومضت وتمضى الايام ويحرر الوطن فيعز عليها أن تتلف المحفظة فتجىء بها الى السيجومى وتحرقها أمام النصب ٠

ويقول البشير خريف فالمتأمل فى النصب وهو سارية بسيطة ذات ثلاثة أمتار تقريبا يعلوها هرم صغير يرى فى الاسمنت بقعة أغمق من غيرها ذلك أثر محفظة السمار ولا تسأل هل هذا حقيقة أو خيال فالمهم ان البشير خريف اعطى لتلك البقع السوداء مدلولا خفيا واستلهم منها قصة جميلة ٠

واذا كانت الاقصوصة الرابعة من مجموعة مشموم الفل لا تخرج عن جو خريف القصصى فان (المروض والثور) لها لون خاص نكاد نسميه رمزية فالثور المصارع ينقلب الى قوة لانه اكتسب عقلا ويخرج مع مروضه ويتحادثان بما لا نفهم ومغزى هذا الرمز ان العقل هو مصدر القوة ولا يعطينا الكاتب مزيدا من الشرح وخلاصة القول ان مجموعة البشير خريف مشموم فواح العبير وهو يتميز عن الروايتين السابقتين برق الليل والدقلة فى عراجينها بأنه يقدم لنا خريف فى أقصوصات قصيرة مما يدل على تنوع انتاجه وطول نفسه وخصوبة مادته ٠

أصداء الفكر

• **رحم الله الأمين الشابي :**

فجعت الأوساط الثقافية والاطارات القومية فى الشهر المنصرم بوفاة الاستاذ الأمين الشابى الذى أسدى لوطنه أجل الخدمات قبل الاستقلال وبعده •

ولد الفقيد بمدينة توزر فى الجريد يوم 15 اكتوبر 1917 وزاول تعلمه الابتدائى بمجاز الباب ورأس الجبل وزغوان نظرا الى أن أباه كان قاضيا ينتقل من مدينة الى أخرى بحكم مهنته وتعاطى تعلمه الثانوى بالمدرسة الصادقية ثم نال الاجازة والتبريز فى اللغة والآداب العربية من جامعة باريس •

وعمل الفقيد منذ شبابه فى صفوف المنظمات القومية وناضل من أجل العزة والاستقلال فكان كاتبا للشبيبة المدرسية من عام 1936 الى 1938 واضطلع أعواما طويلة بمسؤولية الكتابة العامة لنقابة التعليم الثانوى وعضوية الجامعة القومية للتعليم وبذل مجهودات سخية فى مقاومة النظام التربوى الاستعمارى حتى اذا ما نالت البلاد الاستقلال وكون الرئيس الحبيب بورقيبة أول حكومة له فى افريل 1956 أسندت للفقيد وزارة التربية القومية •

وقد اختار لرئاسة ديوانه مدير هذه المجلة وهو أحد رفاقه فى نقابة التعليم الثانوى عمل معه فى سنى الشدة وقاسمه جسامة المسؤولية ورافقه فى العديد من المقابلات العسيرة مع مدير التعليم الفرنسى حينذاك السيد ل. باى وكانت تدوم الساعات الطوال لأن موضوعها كان يتجاوز المسائل النقابية البسيطة ويتناول قضايا التعريب ومحتوى البرامج وتونسة إطار إدارات المدارس الثانوية والترشيحية ••• وقد ألح على مؤسس هذه المجلة قبول مسؤولية ديوان الوزارة مع وعده بافساح المجال أمامه كى يرعى المجلة التى لم يمض على تأسيسها فى ذلك الوقت سوى 7 أشهر ويخصص لها الوقت الكافى لأنه كان ـ رحمه الله ـ مؤمنا برسالتها وقد بر بوعده وظل دائما حريصا على تشجيعها والاخذ بيدها وترك لصاحبها حرية التصرف والتفكير ورحب بما كتبه حينذاك من افتتاحيات ومقالات توجيهية ونقدية حول اصلاح التعليم وتونسته وتخليصه من الفرنسة والمسخ •

وترأس الأمين الشابى اللجنة الثقافية القومية ونظم بهـذه الصفـة حفلا مشهودا للاحتفال بمرور عشرة أعوام على تأسيس مجلة « الفكر » وألقى بهذه المناسبة كلمة رقيقة بليغة ضمنها محبته للمجلة وثقته فى تأديتها الرسالة المقدسة وتفاؤله بمستقبلها ومستقبل الثقافة بهذه البلاد ٠

وللفقيد أياد بيضاء فى مجالات التدريس إذ ساهم فى تكوين أجيال وأجيال من المربين جمعوا بين الكفاءة الصناعية والعقيدة والضمير المهنى وهم اليوم يؤدون واجبهم فى شتى الميادين القومية كأحسن ما يكون الأداء ٠

لقد كان الأمين الشابى مثقفا بأتم معنى الكلمة ، وديعا ، لطيفا ، عفيفا ، حساسا ، ذكيا الى حد العبقرية ، يحترم غيره ولكنه يؤمن بأفكاره ويتمسك بمبادئه تمسك المؤمن الأصيل ٠

إننا فقدنا بموت أخينا الكبير الاستاذ الأمين الشابى مناضلا صامدا ومربيا مثاليا ومثقفا أصيلا وصديقا وفيا وإنسانا كبيرا ٠

رحمه الله وجازاه بقدر ما أحب هذا الوطن وتفانى فى خدمته ورزق عائلته وأصدقاءه الأوفياء جميل الصبر والسلوان ٠

م٠ م٠

◆ اتحاد الكتاب التونسيين يعقد جلسته العامة :

عقد اعضاء اتحاد الكتاب التونسيين جلستهم العامة فى نهاية شهر ديسمبر الماضى ٠ وقد حضر افتتاح الجلسة السيد وزير الشؤون الثقافية وثلة من المدعوين ٠ رحب الاستاذ محمد مزالى رئيس الاتحاد بالسيد الوزير وشكره لتفضله بالاشراف على هذه الجلسة ورجا أن يتعاون الجميع لغاية النهوض بالادب التونسى والسماح له بالاشعاع فى العالم ٠ وعبر الاستاذ المسعدى فى كلمته عن سروره بالاشراف على هذه الجلسة بوصفه صادقيا قديما ، وبوصفه كاتبا ، وبوصفه وزيرا للثقافة ، وقال مخاطبا أعضاء الاتحاد : « إن البلاد تترقب منكم أن تكونوا مظهرا لحرية الفكر أى أن تعملوا على أن تظهر على أيديكم القيمة العليا للفكر الخلاق » ٠

وشكر الاستاذ مزالى السيد وزير الثقافة ، ووعده بأن يسعى الاتحاد أكثر

من ذى قبل الى الخلق والابداع وسلوك السبل التى تسمح للادب التونسى بمزيد الاشعاع ٠

بعد ذلك تمت قراءة التقريرين الادبى والمالى ومناقشتهما ، وجرى انتخاب الهيئة المديرة ٠ وفيما يلى قائمة الاعضاء الفائزين :

I – محمد مزالى (39 صوتا)	6 – البشير بن سلامة (23 صوتا)
2 – محمد العروسى المطوى (36 صوتا)	7 – مصطفى الفارسى (22 صوتا)
3 – عز الدين المدنى (32 صوتا)	8 – أبو زيان السعدى (2I صوتا)
4 – محمد فنطر (3I صوتا)	9 – الميدانى بن صالح (20 صوتا)
5 – الطيب العنابى (26 صوتا)	I0 – التهامى نقرة (20 صوتا)

أما تشكيل المكتب فقد تم فى جلسة لاحقة عقدتها الهيئة الجديدة وهو كما يلى :

محمد مزالى : رئيس	محمد فنطر : أمين مال مساعد
محمد العروسى المطوى: مساعد الرئيس	الطيب العنابى : عضو
مصطفى الفارسى : كاتب عام	الميدانى بن صالح : عضو
أبو زيان السعدى : كاتب عام مساعد	عز الدين المدنى : عضو
البشير بن سلامة : أمين مال	التهامى نقرة : عضو

◆ الشيخ المختار بن محمود فى ذمة الله :

فجعت العائلة العلمية بتونس فى شهر ديسمبر الماضى بفقدان شيخ من علمائها الأجلة عن سن تناهز 69 عاما قضاها فى التدريس بجامع الزيتونة والمدرسة الصادقية ٠ وهو الشيخ المختار بن محمود تغمده الله بواسع رحمته٠

وقد كان للشيخ الفقيد الى جانب عمله فى التدريس نشاط ثقافى تمثل فى رئاسته لتحرير المجلة الزيتونية زمنا ، ومحاضراته الاذاعية التى كان يلقيها باسم العلامة الطحاوى ، ومشاركته بعدة أبحاث نشرتها الصحف والمجلات المختلفة ٠ هذا وكان الشيخ الفقيد عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ سنة I956 ٠

• **نشـر عـادى جـدا !**

أعادت الشركة التونسية للتوزيع فى نهاية الشهر الماضى نشر « المنبت » فى اخراج أحسن بكثير من الطبعة الاولى ٠ و « **المنبت** » ــ كما يعلم القارىء ــ عنوان رواية عبد المجيد عطية ، وقد سبق فى السنوات القليلة الماضية ان فازت بجائزة أدبية ٠ والجديد فى هذه الطبعة الثانية إلحاق دراسة رشاد الحمزاوى بآخر الـرواية ، إذ هى تلقى اضواء على « المنبت » ، فى عدد كثير من نواحيها ٠

ونحن نرتاح لهذه الظاهرة الجديدة فى نشر الاعمـال الادبيـة الحديثة ، فكأنها تلبية للرغبة التى أبديناها المرار العديدة على صفحات مجلة « الفكر » أو فى أعمدة الصحافة الثقافية ، وهى إلحاق دراسة نقدية بهذه الاعمال فى طبعتها الثانية أو الثالثة ، حتى تكون الدراسة لا وجهة نظر نقدية فى خصوص العمل الادبى المقدم الى القارىء بـل أيضا تظافرا بين المؤلف والناقد فى إطار واحد وتحت عنوان واحد ٠

* * *

وأصدرت دار المغرب العربى للنشر فى بداية الشهـر المـاضى ، ضمن سلسلتها « **أعلامنا** » كتابـا عنوانه « **محمد الخضر حسين** » من تأليف أبـى القـاسم محمـد كـرو ، وهو الحلقـة الـرابعة من هذه السلسلة التى اشتملت فيما مضى على « **عبد الرزاق كرباكة** » و « **ابن هانىء المغربى الأندلسى** » و « **خير الدين التونسى** » ٠

وينقسم هذه الكتاب الى قسمين ٠ رسم المؤلف فى قسم الأول حياة « محمد الخضر حسين » وسجل أعماله ، ثم وصف لنا شاعريته وتآليفه وحبه للصحافة والنضال ٠ أما القسم الثـانى فقـد جـاء مختارات من آراء « شيخ الازهر الاسبق » فى دور العلماء وحياتهم الاجتماعية فى عصرهم ، ووجهات نظره فى قضايا الاسلام والخلافة والمشكلات الحياتية اليومية التى لها صلة بمستقبل البلاد المتنـامية كالاجهاض ومنع الحمل ، ولـم يفت المـؤلف جـانب من شخصيـة « محمد الخضر حسين » فى أبرز معالمها فنشر لنا ثـلاث قصـائد تصور لنا الحنين الى الاوطان وحفز الهمم فى سبيل النضال ٠ وختم المؤلف هذه المنتخبات بنشر رأى « محمد الخضر حسين » فى مفهوم

القياس فى اللغة العربية وأشفع ذلك بمثال سياسى يبحث فى آثار الاستبداد والظلم .

وقد علمنا ان الاستاذ محمد مواعدة قد قدم الى الطبع أطروحة دكتوراه بعنوان « **محمد الخضر حسين** » . نرجو أن تصدر فى القريب حتى يسترجع هذا الرجل المناضل مكانته فى ثقافة العالم العربى اليوم .

* * *

وأصدرت الدار التونسية للنشر خلال الشهر الماضى أيضا عددا من المنشورات نذكر أهمها :

ـ العدد الثامن والعشرون من مجلة « قصص » التى يشرف عليها نادى القصة التابع لنادى أبى القاسم الشابى وهو مؤرخ بشهر جويلية 1973 بينما لم يصدر الا منذ ثلاثة أسابيع على اكثر تقدير . هذا بالاضافة الى قبح الاخراج والتصوير . فكان الاولى أن يقع الاختيار على ألوان يرتاح اليها البصر لا هذه الالوان القرمزية والخضراء التى تنفر منها العين ، وان يقع تجنب هذه الصور التى لا تمثل شيئا فى حقيقة أمرها وان يقتصر على حسن الاخراج وبساطته لأن بساطة الاخراج تجلب النظر وتستهوى المطالع . وهذه أمور لم يستطع النشر فى بلادنا حلها بيسر ... ويشتمل هذا العدد على قصص قصيرة عديدة ودراسات . أما القصص القصيرة فهى من كتابة زهرة الجلاصى ومحمد مرسيط ومحمد الهادى بن صالح وعلى الحوسى ومحمد الحبيب السالمى ونتيلة التبابنية ومصطفى مدائنى ومحمد الهادى بوطبة . وفى هذه القصص ـ أو قل فى بعض منها ـ جودة فنية تستحق كل تنويه ، بعد ان وقعت مناقشتها فى النادى خلال جلساته الاسبوعية . وأما الدراسات فهى على صنفين حوصلة هيكلية كتبها أحمد ممو عن القصة النضالية ونشر جزءها الثانى فى هذا العدد ، و « قراءة » هيكلية فى مستوى الشكل بالخصوص كتبها عبد السلام خروف . والعملان النقديان لهما إتقان فنى فى ادراك الهياكل الغائصة فى النصوص القصصية والروائية .

* * *

الكتاب الهام الثانى الذى اصدرته الدار التونسية للنشر هو « أحاديث السمر » من تأليف محمد المرزوقى . والكتاب حسن

الاخراج رغم سذاجة صوره (وهي سذاجة متعمدة !) نظيف الطبع، واضح الحروف ، كبير الحجم ، قد تم نشره بطريقة الأوفست ٠

و « أحاديث السمر » قد اشتهر بها محمد المرزوقي منذ سنوات في الاذاعة الوطنية ، وقد جمع منها مختارات صدرها بمقدمة وجيزة وضح فيها القصد من نشرها ٠ فكتب :

« هذه مجموعة من الاحاديث ، ألح كثير من أصدقائي وتلاميذي في نشرها ٠ وهؤلاء يعتبرونها قصصا ، والواقع انها مجرد أحاديث كتبت على الاسلوب القصصي ، أو وضعت في قالب القصة ، أو هي قصص وضعت في قالب أحاديث ، ففيها نفحات القصة ولا تملك فنياتها ، وفيها مواضيعها وأسلوبها، ولا تتقيد بقواعدها وشروطها٠ وقد بحثت عن عنوان لها فلم أجد عنوانا ينطبق على حقيقتها خيرا من أحاديث السمر » ٠

والحقيقة ان هذه « الأحاديث » ليست ساذجة كما تصورها رسام الغلاف والصور التي تزين صفحات الكتاب ، بل هي مشتبكة وعسيرة ، ذلك انها تصور أوضاعا اجتماعية وفردية ملتبسة ٠ وفي هذا المعنى يقول محمد المرزوقي : « إنها أخذت من صميم الحياة ، فاما أنها وقعت فعلا وليس لي فيها الا الرواية ، وإما أن الواقع يقتضيها، وفي الامكان وقوعها ، وفي كلا الحالتين ما عدوت واقعا معروفا ، ولا اقتبست خيالا غير ماله صلة وثيقة بالواقع » ٠ والواقع كما هو معلوم ملتبس ، شائك ٠

* * *

تستعد مؤسسة ع٠ بن عبد الله للنشر والتوزيع لاصدار باكورة منشوراتها الادبية في الايام القريبة القادمة ، ومن بينها كتاب لأبي زيان السعدي عن الادب التونسي الحديث ، مع مقدمة ضافية كتبها له الاستاذ محمد مزالي مدير مجلة « الفكر » ، نرجو ان يصدر هذا الكتاب في فاتح هذه السنة، وكذا مجموعة شعرية لمحيي الدين خريف بعنوان « حامل المصابيح » ، وهي ثاني مجموعة لهذا الشاعر الشاب بعد « كلمات للغرباء » الذي حصل به على جائزة وزارة الشؤون الثقافية من أعوام غير بعيدة ٠ كما تتأهب الشركة التونسية للتوزيع لاصدار مجموعة من القصص العالمية المترجمة عن الانكليزية بقلم عبد الرحمان عمار ٠

ع٠ م٠